أَنْطوُنْيوُ طاَبوُكيّ

مكتبة بغداد

أَحْلاَمُ أَحْلاَمٍ

مَحْكِياّتٌ حُلمِيَّةٌ مُتَخَيَّلَةٌ

لِـ ديِداَلْ، أُوْڤيِدْ، أَپوُلْيوُسْ، أَنْجْيوُلِييِريّ، ڤيوُنْ، راَبْلي، كاَراَڤاَجْيوُ، گوُياَ، كوُلْرِدْجْ، لِيوُپاَرْدي، كوُلوُدي، سْتِڤِنْسُنْ، راَمْبوُ، تْشيِكوُڤ، ديِبوُسيّ، توُلوُزْ - لوُتْريِكْ، پِصُواَ، ماَياَكوُڤسْكي، لوُرْكاَ وَفْروُيْدْ



تَرْجَمَةُ، تَقْديِمُ وَتَحْشِيَةُ: رَشيِدْ وَحْتي

منشورات الجمل

أَنْطُونْيُو طَابُوكِيّ

أَحْلاَمُ أَحْلاَمٍ

مَحْكِيَاتٌ حُلمِيَّةٌ مُتَخَيَّلَةٌ

لِـ دِيدَالْ، أُوْفِيدْ، أَبِوُلْيُوسْ، أَنْجِيوُلِيِيرِيٍّ، فِيُونْ، رَابْلِي، كَارَاڤَاجْيُو، گُويَا، كُولْرِدْجْ، لِيُوپَارْدِي، كُولُودِي، سْتِڤِنْسُنْ، رَامْبُو، تْشِيكُوڤ، دِيبُوسِيّ، تُولُوزْ ـ لُوتْرِيكْ، پِصُوا، مَايَاكُوڤْسْكِي، لُورْكَا وَفْرُويْدْ

تَرْجَمَةُ، تَقْدِيمُ وَتَحْشِيَةُ:

رَشِيدْ وَحْتي

منشورات الجمل

رشيدْ وَحْتي. شاعِرٌ وَمُتَرْجِمٌ. مِنْ مَوالِيدِ مَدِينَةِ بَني مَلالٌ [الْمَغْرِبْ] ١٩٧١. نَشَرَ قَصائِدَهُ وَتَرْجَماتِهِ في مَنابِرَ عَرَبِيَّةٍ عَديدَةٍ وَأُنْطولوجِيَّتَيْنِ شِعْرِيَّتَيْنِ خاصَّتَيْنِ بِالشِّعْرِ الْمَغْرِبِيِّ الْحَديثِ. صَدَرَتْ لَهُ في التَّرْجَمَةِ: جوُيْس مَنْصورْ، وَغابَتُنا أَمْسِ أَحْلامُكَ غَداً، أَنْطولوجْيا شِعْرِيَّةٌ، ٢٠٠٦. مُحَرِّرُ مَجَلَّةِ موزايِيكْ، الْمُخْتَصَّةِ بِالشِّعْرِ. مُتَرْجِمُ وَمُصَمِّمُ أَنْطولوجْيا لِلشِّعْرِ الْعِراقِيِّ الْحَديثِ [الأُصولُ الْعَرَبِيَّةُ لِلْقَصائِدِ بِإِزاءِ تَرْجَمَتِها لِلْفَرَنْسِيَّةِ] في مَوْقِعِ: *http://membres.lycos.fr/raqayem*

يُمْكِنُ مُراجَعَةِ التَّرْجَمَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ الَّتي نَقَلْنا عَنْها النَّصَّ (الَّذي يَعودُ لِسَنَةِ ١٩٩٢) في كِتابِ: أَنْطونْيو طابوكي، أَحْلامُ أَحْلامٍ:

Antonio Tabucchi, Reves de reves, Christian Bourgois Editeur, coll. "Domaine etranger", Paris, 1994, p160.

أَنْطونْيو طابوكي: أَحْلامُ أَحْلامٍ، مَحْكِيّاتٌ حُلُمِيَّةٌ مُتَخَيَّلَةٌ

تَرْجَمَةٌ، تَقْديمٌ وَتَحْشِيَةٌ: رَشيدْ وَحْتي

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

أَنْطوُنْيوُ طاَبوُكيٍّ،
حاَلِمٌ يُوْسِعُ رِئَتَيْهِ فيِ لَحْمِ الْحَياَةِ

«اَلنَّوْمُ سُلْطاَنٌ».

مَثَلٌ سائِرٌ

١

إِضاَفَةً إِلىَ كَوْنِهِ رِوائِياً، قَصاًصاً، ناَقِداً، مُتَرْجِماً[١] وَدارِساً، يَشْتَغِلُ أَنْطوُنْيوُ طاَبوُكيٍّ، حاَلِياً، أُسْتاَذاً لِلُّغَةِ وَالْآداَبِ الْبُرْتُغاَلِيَّةِ بِجاَمِعَةِ سْيِيناَ[٢] الْإِيْطاَلِيَّةِ. تَمْتاَزُ نُصوُصُهُ السَّرْدِيَّةُ بِطاَبَعٍ شَذَرِيٍّ تَتَّضِحُ فيِهِ مَعاَلِمُ كِتاَبَةٍ أَصيِلَةٍ وَمُبْتَكَرَةٍ، قَلِقَةٍ، ضاَرِبَةِ الْجُذوُرِ فيِ التُّراَثِ السَّرْدِيِّ الْإِنْساَنِيِّ. تَسْتَلْهِمُ كِتاَباَتُهُ، فيِ نَفْسِ الْآنِ، واَقِعَ مَنْطَقَةِ طوُسْكاَناَ[٣] الْإِيْطاَلِيَّةِ وَشَغَفَهُ بِالْبُرْتُغاَلِ.

(١) نَقَلَ مِنَ الْبُرْتُغاَلِيَّةِ إِلىَ الإِيْطاَلِيَّةِ أَشْعاَرَ بِصوُاً Pessoa وَكاَرْلوُصْ دْرِموُنْ دِي أَنْدراَدي Carlos Drummond de Andrade.

(٢) Sienna.

(٣) Toscana.

أَعْطاَهُ نَجاَحُ رِواَيَتِهِ **مَقْطوُعَةٌ موُسيِقِيَّةٌ هِنْدِيَّةٌ**[١] صَيْتاً عاَلَمِيّاً فَرَضَهُ كَواَحِدٍ مِنْ كُتاَّبِ جيلِهِ الْكِباَرِ.

٢

وُلِدَ طاَبوُكيِّ سَنَةَ ١٩٣٦ بِمَدينَةِ پيِزاَ[٢] لِأُسْرَةٍ مُتَمَسِّكَةٍ بِقِيَمِ الْعَلْماَنِيَّةِ وَمُناَهِضَةٍ لِلْفاَشِيَّةِ بِشِدَّةٍ. الطُّفوُلَةُ وَالْمُراَهَقَةُ قَضاَّهُماَ فيِ طوُسْكاَنيِاَ.

٣

تَدوُرُ مُجْمَلُ أَعْماَلِهِ فيِ عَواَلِمَ حُلُمِيَّةٍ وَغَريِبَةٍ، كَثيِراً ماَ تَحْضُرُ فيِهاَ ثيِمَةُ الْقَريِنِ[٣]، مَعَ عَلاَقَةٍ خاَصَّةٍ بِالزَّماَنِ فيِ شَكْلِ حَكاَياَ أُسْطوُرِيَّةٍ تَنْزاَحُ عَنِ الْبِناَءِ التَّقْليِدِيِّ وَتَسْتَنِدُ لِزَخْمٍ تَصْويِرِيٍّ هاَئِلٍ وَطاَبَعٍ شَذَرِيٍّ[٤] لاَ يَخْضَعُ لِخَطِّيَّةِ الْحِبْكَةِ، بِحَيْثِ لَمْ يَعُدْ مُمْكِناً تَصْنيِفُ هَذِهِ النُّصوُصِ ضِمْنَ الْجِنْسِ التَّقْليِدِيِّ لِلرِّواَيَةِ.

---

(١) Nocturne indien, 1984.

(٢) Pisa.

(٣) Le double.

(٤) Forme morcelée.

٤

طَابُوكِيّ قَارِئٌ نَهِمٌ، لِذَلِكَ فَمَحْكِيَاتُهُ غَنِيَّةٌ بِالْإِحَالَاتِ التَّنَاصِّيَّةِ(١).

هَذِهِ الْفَرَادَةُ فِي الْكِتَابَةِ - الَّتِي كَرَّسَتْهُ كَاتِباً مُتَمَيِّزاً لِلْمَحْكِيَاتِ الْقَصِيرَةِ - جَعَلَتْنَا نَنْعَتُ نُصُوصَ طَابُوكِيّ بِالْمَحْكِيّ [ج. مَحْكِيَاتٌ](٢) وَالنَّصّ [ج. نُصُوصٌ](٣) بَدَلَ الْقِصَّةِ أَوِ الرِّوَايَةِ(٤).

٥

فِي تَجْوَالِهِ بَيْنَ السَّرْدِ، النَّقْدِ الصُّحُفِيّ وَالدِّرَاسَةِ الْأَدَبِيَّةِ وَالنَّظَرِيَّةِ، بَيْنَ الْكِتَابَةِ بِالْبُرْتُغَالِيَّةِ وَالْإِيطَالِيَّةِ، فَرَضَ طَابُوكِيّ، عَبْرَ مَوَاهِبِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ، اسْمَهُ كَأَحَدِ الْوُجُوهِ الْبَارِزَةِ فِي الْمَشْهَدِ الْأَدَبِيّ الْأُورُبِيّ. يُصَرِّحُ فِي أَحَدِ الْحِوَارَاتِ مَعَهُ: «يُمْكِنُ أَنْ نَنْسَى فِي لُغَةٍ مَا وَأَنْ نَتَذَكَّرَ فِي أُخْرَى. أَصْلًا، أَظُنُّ أَنَّ اللُّغَاتِ لَيْسَتْ فَقَطْ أَدَوَاتٍ لِلتَّوَاصُلِ، إِنَّهَا فَضَاءَاتٌ لِلتَّذَكُّرِ. إِذَا قُمْتَ بِتَجْرِبَةٍ مَا فِي

---

(١) Références intertextuelles.

(٢) Récit(s).

(٣) Texte(s).

(٤) Roman(s).

لُغَةٍ بِعَيْنِهاَ، فَإنَّكَ تَسْتَعِيدُهاَ مِنْ خِلاَلِ الذاَّكِرَةِ بِتِلْكَ اللُّغَةِ نَفْسِهاَ: كَماَ فِي الْحُلْمِ، لَا تَقُومُ أَبَداً بِالتَّرْجَمَةِ»[١]. فَبِوُجُودِهِ إذَنْ فِي مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ بَيْنَ لُغاَتٍ، ثَقاَفاَتٍ وَبُلْداَنٍ مُتَعَدِّدَةٍ، تَكُونُ أَعْماَلُهُ، الْبَعِيدَةُ كُلَّ الْبُعْدِ عَنْ أَيَّةِ نَزْعَةٍ مَحَلِّيَّةٍ أَوْ قُطْرِيَّةٍ، مَفْتُوحَةً عَلى الْحُلْمِ وَالسِّحْرِ الْمُرْبِكِ لِلْخَياَلِ عَلىَ تُخُومِ الْهَذَياَنِ الشِّعْرِيِّ.

٦

في السِّنِينِ الْأَخِيرَةِ، بَرزَ طاَبُوكِي كَأَبْرَزِ الْمُناَوِئِينَ لِتَناَمِي الْفاَشِيَّةِ وَكَراَهِيَةِ الْأَجاَنِبِ بِإيْطاَلْياَ، كَماَ كاَنَ فِي مُقَدِّمَةِ الْمُعاَرِضِينَ لِهَيْمَنَةِ بِرْلِسْكُونِي عَلىَ الْمَشْهَدِ الْإعْلاَمِيِّ بِمُحاَوَلَةِ تَوْجِيهِهِ لِلْبُنى التَّحْتِيَّةِ السَّمْعِيَّةِ وَالْبَصَرِيَّةِ لِلدَّوْلَةِ: «أُفَضِّلُ الْأَرَقَ عَلىَ التَّخْدِيرِ. فِي كُتُبِي، لَا أَنْحاَزُ لِلسُّلْطَةِ أَبَداً، بَلْ لِمَنْ عاَنواُ مِنْهاَ. الْمَهْزُومُونَ، مَهْزُومُو التاَّرِيخِ، أُوْلَئِكَ مَوْضُوعُ كُتُبِي»[٢].

المترجِم

(١) حِوَارٌ مَعَ مَجَلَّةِ الْمَساَءِ Le soir الْبَلْجِيكِيَّةِ، بِتاَرِيخ ٢٧. ٠٢. ٢٠٠٢.
(٢) حِواَرٌ مَعَ الْبَرِيدِ الدَّوْلِيِّ Courrier international.

إلىَ ابْنَتيِ تِريِزاَ،
الَّتيِ أَعْطَتْنيِ الْكُراَّسَ
حَيْثُ وُلِدَ هَذاَ الْكِتاَبُ

أَ. طَ.

تَحْتَ شَجَرَةِ لَوْزِ زَوْجَتِكَ، عِنْدَماَ يَبْزُغُ هِلاَلُ أَغُسْطُسْ مِنْ خَلْفِ الْمَنْزِلِ، بِاسْتِطاَعَتِكَ، إذاَ ابْتِسَمَتِ الْآلِهَةُ، أنْ تَحْلُمَ أَحْلاَمَ شَخْصٍ آخَرَ.

أُغْنِيَّةٌ صينِيَّةٌ قَديمَةٌ

مَلْحوُظَةٌ

كَثيراً ماَ راَوَدَتْني الرَّغْبَةُ في مَعْرِفَةِ أَحْلَامِ الْفَناَّنينَ الَّذينَ أَحْبَبْتُهُمْ. لِسوُءِ الْحَظِّ، أُوْلَئِكَ الَّذينَ أَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ في هَذاَ الْكِتاَبِ لَمْ يَتْرُكواُ لَناَ الْمَساَراَتِ اللَّيْلِيَّةَ لِأَرْواَحِهِمْ. وَهَذاَ الْفَراَغُ يُغْري كَثيراً بِمَلْئِهِ، مِنْ خِلَالِ اسْتِدْعاَءِ الْأَدَبِ لِتَعْويضِ ماَ ضاَعَ. وَرَغْمَ ذَلِكَ فَأَناَ أَعي أَنَّ هَذِهِ الْمَحْكِياَّتِ الْبَديلَةَ، الَّتي تَخَيَّلَهاَ رَجُلٌ يَحِنُّ لِلْأَحْلَامِ الْمَجْهوُلَةِ، لَيْسَتْ إِلَّا افْتِراَضاَتٍ بَئيسَةً، أَوْهاَماً باَهِتَةً، تَرْميماَتٍ بَعيدَةً عَنِ الْاحْتِماَلِ. هَكَذاَ يَنْبَغي لَهاَ أَنْ تُقْرَأَ، وَلْتَكُنْ أَرْواَحُ شَخْصِياَّتي ـ الَّتي تَحْلُمُ الْآنَ في الطَّرَفِ الْآخَرِ ـ حَليمَةً بِالْمُمَثِّلِ الْبَئيسِ لِخُلوُدِهِمْ.

أَ. طَ.

١

حُلْمُ دِيدَالْ،
مُهَنْدِساً مِعْمارِيّاً وَطَيّاراً



مُهَنْدِسٌ مِعْمارِيٌّ وَأَوَّلُ طَيّارٍ، لَعَلَّهُ حُلْمٌ مِنْ أَحْلامِنا.

ذاَتَ لَيْلَةٍ مُنْذُ آلاَفِ السِّنينِ، فيِ زَمَنٍ لَا يُمْكِنُ تَقْديرُهُ بِدِقَّةٍ، رَأىَ ديِداَلُ، الْمُهَنْدِسُ الْمِعْمارِيُّ وَالطَّياَّرُ، مَناماً.

رَأىَ أَنَّهُ كاَنَ يَتواَجَدُ فيِ أَحْشاَءِ قَصْرٍ فَسيِحٍ، وَأَنَّهُ كاَنَ يَعْبُرُ رُواَقاً. كاَنَ هَذاَ الْأَخيرُ يُفْضيِ إلىَ رُواَقٍ آخَرَ وَكاَنَ ديِداَلُ، بِتَعَبِهِ، بِرَيْبَتِهِ، يَتَقَدَّمُ مُسْتَنِداً لِلْحيِطاَنِ. عِنْدَماَ اجْتاَزَ الرُّواَقَ، أَفْضىَ إلىَ قاَعَةٍ صَغيرَةٍ ثُماَنِيَّةِ الْأَرْكاَنِ، كاَنَتْ مُبْتَدَءاً لِثَماَنِيَّةِ أَرْوِقَةٍ. بَدَأَ ديِداَلُ يُحِسُّ بِضَيْقٍ شَديِدٍ وَبِالرَّغْبَةِ فيِ اسْتِنْشاَقِ هَواَءٍ نَقِيٍّ. تَسَرَّبَ نَحْوَ أَحَدِ الْأَرْوِقَةِ، لَكِنَّهُ كاَنَ يَنْتَهيِ بِحَواَفِّهِ. أَعاَدَ ديِداَلُ الْكَرَّةَ سَبْعَ مَراَّتٍ إلىَ أَنْ تَسَرَّبَ، فيِ الْمُحاَوَلَةِ الثاَّمِنَةِ، نَحْوَ رُواَقٍ مَديِدٍ أَفْضىَ، عَبْرَ سِلْسِلَةٍ مِنَ التَّعَرُّجاَتِ فيِ شَكْلِ زاَوِيَّةٍ حاَدَّةٍ، إلىَ رُواَقٍ آخَرَ. عِنْدَئِذٍ اقْتَعَدَ دَرَجاً مِنَ الرُّخاَمِ وَأَخَذَ يَتَفَكَّرُ. عِنْدَ حَواَفِّ الرُّواَقِ، كاَنَتْ ثَمَّةَ مَشاَعِلُ مُتَوَهِّجَةٌ، تُنيرُ جِداَرِياَّتٍ ذاَتَ أَزْرَقٍ لاَزَوَرْدِيٍّ تُجَسِّدُ طُيوُراً وَزُهوُراً.

وَحْدي أَسْتَطيعُ مَعْرِفَةَ كَيْفِيَّةِ الْخُروُجِ مِنْ هُناَ، قاَلَ ديِداَلُ فيِ نَفْسِهِ، لَكِننيِّ لا أَتَذَكَّرُهاَ. خَلَعَ خُفَّيْهِ وَشَرَعَ فيِ الْمَشْيِ حاَفِيَّ

الْقَدَمَيْنِ فَوْقَ بِلَاطِ الرُّخَامِ الْأَخْضَرِ. وِلِلتَّأَسيِّ، أَخَذَ يُدَنْدِنُ أُهْزُوجَةً قَديمَةً كَانَ يُهَدْهَدُ بِهاَ في طُفوُلَتِهِ. وَكَانَتْ تَقْويساَتُ الرُّوَاقِ الْمَديدِ تُرْجِعُ لَهُ صَدى صَوْتِهِ مُضاَعَفاً عَشْرَ مَرأَتٍ.

وَحْدِي أَسْتَطيعُ مَعْرِفَةَ كَيْفِيَّةِ الْخُروُجِ مِنْ هُناَ، قاَلَ دِيدَالُ فِي نَفْسِهِ، لَكِنيِّ لَا أَتَذَكَّرُهاَ.

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، سَلَكَ نَحْوَ بَهْوٍ مُسْتَدِيرٍ مُقَبَّبٍ، يَزْدَانُ بِمَناَظِرَ سَخِيفَةٍ رُسِمَتْ في شَكْلِ جِداَرِياَّتٍ. كاَنَ يَتَذَكَّرُ هَذِهِ الْقاَعَةَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْتَحْضِرُ لِمَ يَتَذَكَّرُهاَ. كاَنَتْ ثَمَّةَ كَراسٍ أُعِيدَ كِساَؤُهاَ بِأَقْمِشَةٍ فاَخِرَةٍ، وَ ـ وَسْطَ الْغُرْفَةِ ـ سَرِيرٌ مُتَّسِعٌ. عَلىَ جَنْبِ السَّرِيرِ، كاَنَ يَنْتَصِبُ رَجُلٌ رَشِيقُ الْقِوامِ، تَبْدوُ عَلَيْهِ مَلَامِحُ الْحَيَوِيَّةِ وَالْفُتُوَّةِ. كاَنَ لِهَذاَ الرَّجُلِ رَأْسُ ثَوْرٍ. كاَنَ يَتَحَسَّسُهاَ بِكِلْتاَ يَدَيْهِ، وَيَنْتَحِبُ. دَناَ مِنْهُ دِيداَلُ وَرَبَّتَ عَلىَ إِحْدَى كَتِفَيْهِ. سَأَلَهُ: لِمَ الْبُكاَءُ؟ سَحَبَ الرَّجُلُ رَأْسَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَحَدَّقَ فيهِ بِعَيْنَيْهِ الْبَهِيمِيَّتَيْنِ. أَبْكِي لِأَنيِّ أَعْشَقُ الْقَمَرَ، قاَلَ، رَأَيْتُهُ مَرَّةً واَحِدَةً، وَأَناَ طِفْلٌ ذاَتَ مَساَءٍ عِنْدَ النَّأَفِذَةِ، لَكِنيِّ لَا أَسْتَطِيعُ وَصْلَهُ لِأَنيِّ سَجِينٌ في هَذاَ الْقَصْرِ. سَأَكْتَفِي فَقَطْ بِالْاضْطِجاَعِ عَلىَ مَرْجٍ، آناَءَ اللَّيْلِ، لِتُداَعِبَنِي أَشِعَّتُهُ، لَكِنيِّ سَجِينٌ فِي هَذاَ الْقَصْرِ، مُنْذُ مُدَّةٍ تَتَّصِلُ بِطُفوُلَتِي وَأَناَ حَبِيسٌ فِي هَذاَ الْقَصْرِ. وَعاَوَدَ الْبُكاَءَ مِنْ جَدِيدٍ.

عِنْدَماَ أَحسَّ دِيدَاَلُ بِحُزْنٍ شَدِيدٍ، كاَنَ قَلْبُهُ يَخْفِقُ فيِ صَدْرِهِ بقُوَّةٍ. سَأُساَعِدُكَ فيِ الْخُروُجِ مِنْ هُناَ، قاَلَ لَهُ.

رَفَعَ الرَّجُلُ ـ الْبَهِيمَةُ رَأْسَهُ مِنْ جَدِيدٍ وَحَدَّقَ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْهِ الْبَقَرِيَّتَيْنِ. لِهَذِهِ الْغُرْفَةِ باَباَنِ، قاَلَ، وَلِكُلٍّ باَبٍ حاَرِسٌ يأْمَنُهُ. باَبٌ تُؤَدِيّ إِلىَ الْحُرِيَّةِ، وَالْأُخْرىَ إِلىَ الْمَوْتِ. حاَرِسٌ لَا يقُولُ إِلَّا الصِّدْقَ، وَالْآخَرُ لَا يَتَفَوَّهُ إِلَّا بِالْأَكاَذِيبِ. لَكِنيِّ لَا أَسْتَطيعُ تَمْييِزَ هَذاَ مِنْ ذاَكَ، وَلَا باَبَ الْحُرِيَّةِ مِنْ باَبِ الْمَوْتِ.

اِتْبَعْنيِ، قاَلَ دِيداَلُ، تعاَلَ مَعيِ.

دَناَ مِنْ أَحَدِ الْحاَرِسَيْنِ وَسأَلَهُ: وِفْقَ رَأْيِ زَمِيلِكَ، أَيُّ الْباَبَيْنِ يَقوُدُ نَحْوَ الْحُرِيَّةِ؟ فَغَيَّرَ الْحاَرِسُ وِجْهَتَهُ نَحْوَ الْباَبِ الْآخِرِ. فَفيِ حَقيِقَةِ الْأَمْرِ، لَوْ سَأَلَ الْحاَرِسَ الْكَذاَّبَ، فِإِنَّهُ بِتَعْدِيلِهِ لِإِشاَرَةِ زَمِيلِهِ، كاَنَ سَيُشيِرُ لِباَبِ الْمِقْصَلَةِ؛ وِبِالْعَكْسِ، لَوْ سَأَلَ الْحاَرِسَ الَّذيِ يَصْدُقُ الْقَوْلَ، فَإِنَّهُ بِتَعْيِينِهِ دوُنَ تَعْديِلٍ لِإِشاَرَةِ زَميِلِهِ الْكاَذِبَةِ، كاَنَ سَيُشيِرُ عَلَيْهِ بِباَبِ الْمَوْتِ.

اجْتاَزاَ تِلْكَ الْباَبَ وَعَبَراَ مِنْ جَديِدٍ رُواَقاً مَديداً. كاَنَ الرُّواَقُ عَلىَ شَكْلِ مُنْحَدَرٍ مُتَصاَعِدٍ يُفْضيِ إِلىَ حَديِقَةٍ مُعَلَّقَةٍ تُشْرِفُ عَلىَ أَضْواَءِ مَدِينَةٍ مَجْهوُلَةٍ.

بَدَأَ دِيداَلُ الْآنَ يَتَذَكَّرُ، وَكاَنَ سَعِيداً بِهَذاَ الْاسْتِرْجاَعِ. فيِ

الْأَدْغالِ، كانَ قَدْ خَبَّأَ رِيشاً وَشَمْعاً. كانَ قَدْ تَدَبَّرَ هَذاَ الْأَمْرَ لِنَفْسِهِ، لِلْهُرُوبِ مِنَ الْقَصْرِ. بِهَذِهِ الرِّيشاَتِ وَهَذاَ الشَّمْعِ، صَنَعَ بِمَهارَةٍ زَوْجَ أَجْنِحَةٍ وَثَبَّتَهُماَ عَلىَ كَتِفَيِ الرَّجُلِ الْبَهِيمَةِ. ثُمَّ قادَهُ نَحْوَ حَدِّ الْحَدِيقَةِ الْمُعَلَّقَةِ وَحَدَّثَهُ.

اللَّيْلُ طَوِيلٌ، قالَ، الْقَمَرُ يُطِلُّ بِمُحَياَّهُ وَيَنْتَظِرُكَ، بِإِمْكانِكَ الطَّيَرانُ نَحْوَهُ.

اسْتَدارَ الرَّجُلُ الْبَهِيمَةُ وَنَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْهِ الْبَهِيمِيَّتَيْنِ مُلاطِفاً. شُكْراً، قالَ.

اِنْطَلِقْ، قالَ دِيداَلُ، وَساعَدَهُ عَلىَ الْاَنْدِفاعِ. نَظَرَ إِلىَ الرَّجُلِ ـ الْبَهِيمَةِ وَهُوَ يَبْتَعِدُ بِرَفْرَفاتٍ هائِلَةٍ مِنْ جَناَحَيْهِ فِي اللَّيْلِ، وَهُوَ يَطِيرُ فِي اتِّجاهِ الْقَمَرِ. وَكانَ يَطِيرُ، كانَ يَطِيرُ.

٢

حُلْمُ پوُبْلِيوُّسْ أُوْڤِيدْيوُسْ نازُو، شاَعِراً وَمُتَكَسِّباً



وُلِدَ بِسوُلْموُنْ Sulmone في ٤٢ ق.م. تَرَعْرَعَ في روُماَ حَيْثُ دَرَسَ الْبَلاَغَةَ وَتَقَلَّدَ عِدَّةَ وَظاَئِفَ عُموُمِيَّةٍ. كاَنَ شاَعِراً كَبِيراً، ذاَ ثَقاَفَةٍ هِلِينِسْتِيَّةٍ واَسِعَةٍ، أَنْشَدَ في **التَّحَوُّلاَتِ** *Les mtamorphoses* تَعاَظُمَ قَيْصَرْ أُغُسْطُسْ بِوَصْفِهِ اسْتِحاَلَتَهِ إِلىَ نَجْم. لَكِنَّ مَجْرىَ حَياَتِهِ، لَرُبَّماَ بِسَبَبِ تَوَرُّطِهِ في فَضِيحَةٍ في الْبَلاَطِ، تَغَيَّرَ تَماَماً مِنْ خِلاَلِ فَرَماَنٍ إِمْبَراَطوُرِيٍّ قَضىَ بِنَفْيِهِ إِلىَ طوُمْسْ، عَلىَ ساَحِلِ الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ. وَهُناَكَ ماَتَ، مَعْزوُلاً، في ١٨ ق.م.، رَغْمَ رَساَئِلِ الْاسْتِعْطاَفِ الْمَبْعوُثَةِ لِأُغُسْطُسْ وَلِخَلَفِهِ تِيبِيرْ Tibre.

فِي بَلْدَةِ طومْس[1]، عَلىَ ضِفافِ الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ، فِي لَيْلَةِ السادِسِ عَشَرَ مِنْ كانُونَ الثاني/ يَنايِرْ بَعْدَ الْمِيلادِ، فِي لَيْلَةٍ صَقيعِيَّةٍ عاصِفَةٍ، رَأَى پوبْلِيوُس أُوْڤيدْيوُسْ نازوُ، الشاعِرُ وَالْمُتَمَلِّقُ، فِي مَنامِهِ أَنَّهُ أَصْبَحَ شاعِراً مَحْبوُباً مِنَ الْإِمْبَراطوُرِ. وَ - بِهَذِهِ الصِّفَةِ - بِفَضْلِ مُعْجِزَةٍ إِلَهِيَّةٍ، اسْتَحالَ إِلىَ فَراشَةٍ كَبِيرَةٍ.

كانَتْ فَراشَةً ضَخْمَةً، بِكِبَرِ إِنْسانٍ، وَجَناحَيْنِ مَهِيبَيْنِ أَصْفَرَيْنِ لازَوَرْدِيَّيْنِ. أَماً عَيْناهُ، عَيْناهُ الْفَراشِيَّتانِ الْمُغالِيَّتانِ فِي الْكِبَرِ وَالْكُرَوِيَّتانِ، فَكانَتا تَشْمَلانِ الْأُفُقَ بِأَسْرِهِ.

رَفَعوُهُ فَوْقَ مَرْكَبَةٍ ذَهَبِيَّةٍ أُعِدَّتْ لَهُ خِصيِّصاً، وَكانَتْ تَقوُدُها ثَلاثَةُ أَزْواجٍ مِنَ الْجِيادِ الْبَلْقاءِ نَحْوَ روُماَ. كانَ يَسْعىَ لِلْوُقوُفِ، لَكِنَّ قائِمَتَيْهِ الْهَشَّتَيْنِ لَمْ تَقْوَيا عَلىَ تَحَمُّلِ ثِقْلِ جَناحَيْهِ، بِحَيْثُ أَنَّهُ كانَ بِاطِّرادٍ مُرْغَماً عَلىَ الْاسْتِراحَةِ فَوْقَ الْأَرائِكِ، وَهْوَ يَدْحَصُ بِقائِمَتَيْهِ فِي الْهَواءِ. كانَتْ هاتانِ الْقائِمَتانِ مُحَلَّيَتَيْنِ بِقَلائِدَ وَأَساوِرَ شَرْقِيَّةٍ، وَكانَ يُرِيها بِرِضاً لِلْحَشْدِ الَّذِي كانَ يُصَفِّقُ لَهُ.

---

(١) Tomes.

عِنْدَماَ بَلَغواُ أَبْوابَ روُماَ، أَخْرجَ أُوْفِيدُ وَسائِدَ وَبِمَشَقَّةٍ كَبيرَةٍ، مُسْتَعِيناً بِقائِمَتَيْهِ الْفارِعَتَيْنِ، أَحاطَ نَفْسَهُ بِإِكْليلٍ مِنَ الْغارِ.

كاَنَ الْحَشْدُ في ذُهوُلٍ، وَكاَنَ الْكَثيرُ مِنْهُمْ يَسْجُدوُنَ، لِأَنَّهُمْ كانواُ يَظُنوُّنَهُ إِلَهاً مِنْ آلِهَةِ أَسْياَ. أَرادَ أُوْفِيدُ إِذاًكَ أَنْ يُنَبِّهَهُمْ أَنَّهُ أُوْفِيدُ بِعَيْنِهِ، فَشَرَعَ في الْكَلامِ. لَكِنَّ صَفيراً غَريباً انْبَعَثَ مِنْ فَمِهِ، صَريرٌ شَديدُ الاحْتِداَدِ وَلاَ يُطاَقُ بِحَيْثُ أَرْغَمَ الْحَشْدَ عَلىَ سَدِّ الْآذاَنِ بِالْأَيْدي.

أَلاَ تَسْمَعوُنَ إِنْشاَدي؟ صاَحَ أُوْفِيدُ، إِنَّهُ إِنْشاَدُ الشاَّعِرِ أُوْفِيدِ، ذاَكَ الَّذي لَقَّنَ فُنوُنَ الْعِشْقِ، الَّذي وَصَفَ أَحْواَلَ الْمَحْضِياَّتِ وَالْحِيَلَ، وَالْأَعاَجيبَ وَالتَّحوُّلاَتِ!

لَكِنَّ صَوْتَهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صَفيراً مُبْهَماً، كاَنَ الْحَشْدُ يَتَنَحىَّ أَماَمَ الْجياَدِ. وَفي الْأَخيرِ بَلَغواُ الْقَصْرَ الْإِمْبراَطوُرِيَّ فَارْتَقىَ أُوْفِيدُ، في ارْتِباَكٍ، مُسْتَعِيناً بِقائِمَتَيْهِ، دَرَجاَتِ السُّلَّمِ الَّتي قاَدَتْهُ إِلىَ الْقَيْصَرِ.

كاَنَ الْقَيْصَرُ يَنْتَظِرُهُ، جالِساً عَلىَ عَرْشِهِ، وَكاَنَ يَشْرَبُ نَيْطَلاً مِنَ النَّبيذِ. لِنَسْمَعْ ما نَظَمْتَهُ مِنْ أَجْلي، قاَلَ الْقَيْصَرُ.

كاَنَ أُوْفِيدُ قَدْ نَظَمَ قَصيدَةً قَصيرَةً صاَغَهاَ في أَبْياَتٍ خَفيفَةٍ، مُتَصَنِّعَةٍ، لاَ تَخْلوُ مِنْ بَعْضِ الْجُرْأَةِ الَّتي لَهاَ أَنْ تُسَلِّيَ الْقَيْصَرَ. لَكِنْ كَيْفَ السَّبيلُ إِلىَ إِنْشاَدِهاَ، قاَلَ أُوْفِيدُ في نَفْسِهِ، إِذاَ لَمْ يَكُنْ

صَوْتُهُ إلَّا صَريرَ حَشَرَةٍ. آنَذاكَ فَكَّرَ في إيْصالِ أَبْياتِهِ لِلْقَيْصَرِ بِواسِطَةِ الْإيْماءاتِ، فَشَرَعَ بِرَخاوَةٍ في تَحْريكِ جَناحَيْهِ الْمَهيبَيْنِ في بالِيهِ [حَفْلٍ راقِصٍ] خَلَّابٍ وَإغْرابِيٍّ. كانَتْ سَتائِرُ الْقَصْرِ تَهْتَزُّ، كَسَحَتْ ريحٌ عاتِيَةٌ الْغُرَفَ وَرمىَ الْقَيْصَرُ النَّيْطَلَ مُغْتاظاً عَلىَ الْبِلاطاتِ. كانَ الْقَيْصَرُ رَجُلًا مُخْشَوْشِناً، يَعيشُ عَلىَ بَساطَةِ الْمَأْكَلِ وَقِيَمِ الْفُحولَةِ. لَمْ يَكُنْ لِيُطيقَ أَنْ تُؤَدِّيَ أَمامَهُ هَذِهِ الْحَشَرَةُ الْوَقِحَةُ بالِيهاً في غايَةِ التَّخَنُّثِ. ضَرَبَ كَفاً بِكَفٍّ فَهَرَعَ الْقُوادُ.

أَيُّها الْجُنْدُ، قالَ الْقَيْصَرُ، قُصوا لَهُ الْجَناحَيْنِ. اسْتَلَّ الْقُوادُ السَّيْفَ وَبِبَراعَةٍ، كَأَنَّما شَذَّبوا شَجَرَةً، بَتَروا جَناحَيْ أُوْفيدْ. سَقَطَ الْجَناحانِ أَرْضاً كَريشاتٍ لَيِّنَةٍ وَفَهِمَ أُوْفيدُ إذّاكَ أَنَّ حَياتَهُ انْتَهَتْ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ. مَدْفوعاً بِقُوَّةٍ أَحَسَّها كَقَدَرِهِ، عادَ عَلىَ أَعْقابِهِ وَرَجَعَ، مُتَرَنِّحاً بِقائِمَتَيْهِ الْفَظيعَتَيْنِ، إلىَ سَطْحِ الْقَصْرِ. مِنْ فَوْقِهِ، كانَ الْحَشْدُ الَّذي اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ مَشاعِرُ الشَّراسَةِ يُطالِبُ بِجِلْدِهِ، حَشْدٌ مُتَلَهِّفٌ، كانَ يَنْتَظِرُهُ بِأَيْدٍ كُلُّها هَيَجانٌ.

آنَذاكَ نَزَلَ أُوْفيدُ سَلالِمَ الْقَصْرِ وَهُوَ يَقْفِزُ بِرُعونَةٍ.

٣

حُلْمُ لوُكْيوُسْ أَپوُّلْيوُسْ، كاَتِباً وَأَسْراَرِيّاً



١٢٥ ـ ١٨٠ م. وُلِدَ في ماَدوُرْ Madaure، بِإِفْرِيقْياَ الشَّماَلِيَّةِ، دَرَسَ الْبَلاَغَةَ في قَرْطاَجْ، وَروُماَ وَأَثيِناَ. تَلَقَّنَ الطُّقوُسَ الْأَسْراَرِيَّةِ فيِماَ بَعْدُ. بَعْدَ زَواَجِهِ مِنْ أَرْمَلَةِ پوُدِنْتِلاَّ Pudentilla، اتَّهَمَهُ أَبواَهاَ بِدَفْعِها لِلْارْتِباَطِ بِهاَ بِطُرُقٍ شَيْطاَنِيَّةٍ لِلتَّمَكُّنِ مِنْ مَهْرِهاَ. كُتُبُهُ تَعْكِسُ لَناَ صوُرَةَ رَجُلٍ غَرِيبٍ، ذي نُزوُعاَتٍ صوُفِيَّةٍ، يَميِلُ نَحْوَ الْأَسْراَرِيَّةِ. أَشْهَرُ نُصوُصِهِ، **الْجَحْشُ الذَّهَبِيُّ** *L'âne d'or*، تُشَكِّلُ سيِرَةً تَلْقيِنِيَّةً تَرْوِي تَقَلُّباَتِ الشاَّبِّ لوُكْيوُسْ الَّذِي تَحَوَّلَ بِأَثَرِ السِّحْرِ إِلىَ جَحْشٍ لِيَسْتَرْجِعَ فِي الْأَخيِرِ مَظْهَرَهُ الْإِنْساَنِيَّ.

ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالي تِشْرِينَ الْأَوَّلِ/ أُكْتوُبَرْ سَنَةَ ١٦٥ بَعْدَ الْمِيلَادِ، في مَدِينَةِ قَرْطَاجَ، رَأىَ لوُكْيوُسْ أَبوُلْيوُسْ، الْكاَتِبُ وَالْأَسْرارِيُّ[١]، مَناَماً. رَأىَ أَنَّهُ يَتَواجَدُ في إِحْدى الْمُدُنِ الصَّغيرَةِ لِنوُميدْيا[٢]، كاَنَ الْوَقْتُ مَساءً صَيْفِيّاً إِفْريقِيّاً قائِظاً، كاَنَ يَتَجَوَّلُ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ الْبَوابَةِ الرَّئيسَةِ لِلْمَدينَةِ عِنْدَما اجْتَذَبَتْهُ ضَحكاَتٌ وَصَرَخاتٌ. عَبَرَ الْبَوابَةَ وَرَأىَ، غَيْرَ بَعيدٍ عَنْ أَسْوارِ الصَّلْصالِ الْأَحْمَرِ، جَماعَةً مِنَ الْبَهالِينِ [ج. بَهْلَوانٌ] كانوا يُقَدِّمونَ اسْتِعْراضاً. كاَنَ أَحَدُهُمْ صانِعَ أَلْعابٍ حَرَكِيَّةٍ، نِصْفَ عارٍ، مَطْلِيَّ الْجَسَدِ بِمُسْتَحْضَرِ الْإِسْبيداجِ الْأَبْيَضِ، يَبْذُلُ أَقْصى مَجْهوُدِهِ، لِيَبْقى حافِظاً لِتَوازُنِهِ عَلى الْحَبْلِ، مُتَصَنِّعاً وَشْكَ سُقوُطِهِ. كانَتْ جَمْهَرَةُ الْمُتَفَرِّجينَ بَيْنَ ضاحِكٍ وَخائِفٍ، وَكانَتِ الْكِلابُ تَنْبَحُ. فَجْأَةً، فَقَدَ صانِعُ الْأَلْعابِ تَوازُنَهُ، لَكِنَّ يَدَيْهِ تَشَبَّثَتا بِالْحَبْلِ لِيَبْقى مُعَلَّقاً. تَعالَتِ الْجَمْهَرَةُ بِالصُّراخِ هَلَعاً، ثُمَّ صَفَّقَتْ راضِيَةً. أَدارَ

(١) Mage: مَنْ يَتَفَنَّنُ أَوْ يَتَخَصَّصُ في عَوالِمِ الْأَسْرارِ وَالْغَرائِبِ، والظَّواهِرِ الَّتي لَا تَجِدُ لَها تَفْسِيراً (السِّحْرُ، التَّنْجيمُ، الْعِرافَةُ، الْخيمِياءُ، الْهِرْمِسِيَّةُ، الْقابالَا، إلخ.)

(٢) La Numidie.

الْبَهالِينُ رافِعَةً شَدَّتِ الْحَبْلَ وَما كانَ مِنْ صانِعِ الْأَلْعابِ إلّا أَنِ انْزَلَقَ نَحْوَ الْأَرْضِ مُكَشِّراً أَلْفَ تَكْشِيرَةٍ. تَقَدَّمَ نافِخٌ في الْمِزْمارِ وَسْطَ قُرْصِ التُّرابِ الْمَدْكُوكِ الَّذي تُنيرُهُ أَضْواءُ النيِّرانِ وَبَدَأَ في أَداءِ موسِيقىً ذاتِ طابَعٍ شَرْقِيٍّ. وَما كانَ إلّا أَنْ خَرَجَتْ مِنْ عَرَبَةٍ مُخَصَّصَةٍ لِلْإيْواءِ امْرَأَةٌ مُكْتَنِزَةُ النَّهْدَيْنِ، مُغَطّاةٌ بِحُجُبٍ، تُمْسِكُ بِيَدِها سَوْطاً. تَقَدَّمَتْ وَهْيَ تَسوُطُ الْهَواءَ ثُمَّ لَفَّتِ الْكِرْباجَ حَوْلَ جَسَدِها. كانَتْ امْرَأَةً ذاتَ شَعْرٍ داكِنٍ، أَماَ الْحَلَقَتانِ الزَّرْقاوانِ حَوْلَ عَيْنَيْها فَكانَتا تُشَكِّلانِ أُخْدُودَيْنِ بِحَيْثُ أَنَّ مَساحيقَ التَّجْميلِ - بِسَبَبِ الْعَرَقِ - كانَتْ تُبْدي أَنَّها أَلْصَقَتْهُما فَوْقَ وِجْنَتَيْها.

كانَ أَبوُلْيوسْ يُؤْثِرُ الْانْصِرافَ، لَكِنَّ قُوَّةً غَرِيبَةً أَرْغَمَتْهُ عَلىَ الْبَقاءِ، عَلىَ النَّظَرِ حَمْلَقَةً في هَذِهِ الْمَرْأَةِ. بَدَأَتِ الطُّبولُ تُقْرَعُ، بِبُطْءٍ أَوَّلًا ثُمَّ بِشِدَّةٍ. في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، خَرَجَتْ أَرْبَعَةُ جِيادٍ جَليلَةٍ بَلْقاءَ وَجَحْشٌ مِسْكِينٌ مُنْهَكٌ مِنْ تَحْتِ الْخَيْمَةِ حَيْثُ كانَتِ الدَّوابُّ مَحْفوُظَةً. دَوَّتِ الراَّقِصَةُ بِالسَّوْطِ، فَحَرَنَتِ الْجِيادِ قَبْلَ أَنْ تَنْطَلِقَ في حَفْلَةٍ فُروُسِيَّةٍ سَريعَةٍ. أَماَ الْجَحْشُ فَقَدِ اضْطَجَعَ في رُكْنٍ مِنَ الْأَرْكانِ، قُرْبَ أَقْفاصِ الْقِرَدَةِ، ثُمَّ أَخَذَ بِبُطْءٍ يَسْحَقُ بِذَنَبِهِ الذُّبابَ فَوْقَ ظَهْرِهِ. دَوَّتِ الراَّقِصَةُ بِالسَّوْطِ ثانِيَةً، فَتَوَقَّفَتِ الْجِيادُ وَجَثَتْ وَهِيَ تُحَمْحِمُ طَوِيلًا. إذاَّكَ، وَبِخِفَّةٍ لَمْ تُفاجِئْ أَحَداً، لِبَدانَتِها، قامَتِ الْمَرْأَةُ بِقَفْزَةٍ، بِحَيْثُ وَضَعَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْ رِجْلَيْها عَلىَ

صَهْوَةِ جوادٍ، ثَمَّ بَدَأَتْ تَسوُقُهما معاً مُنْتَصِبَةً، مُنْفَرِجَةَ الساَّقَيْنِ فَوْقَ رِدْفَيْهِماَ. وَهْيَ تَسوُقُ كانَتْ تُحَرِّكُ مِقْبَضَ السَّوْطِ قُدَّامَ بَطْنِهاَ، بِشَكْلٍ فاَحِشٍ، بَيْنَماَ كاَنَتِ الْجَمْهَرَةُ تُوَشْوِشُ بِانْتِشاَءٍ. آنَهاَ كَفَّ قَرْعُ الطُّبوُلِ، فَانْقَلَبَ الْجَحْشُ الْمُنْهَكُ عَلىَ ظَهْرِهِ تواً، كَمَنْ خَضَعَ لِأَمْرٍ لَا مَرْئِيٍّ، وَرَفَعَ رِجْلَيْهِ فيِ الْهَواءِ، ثُمَّ أَظْهَرَ لِلْجُمْهوُرِ قَضِيبَهُ الْمُنْتَصِبَ. حامَتِ الْمَرْأَةُ حَوْلَ الْحَلَبَةِ وَصاَحَتْ أَنْ لَنْ يَحْضُرَ بَقِيَّةَ الْفُرْجَةِ إلَّا مَنْ يَدْفَعُ نُقوُداً رَنَّانَةً، فَماَ كاَنَ مِنْ بَهْلَوانَيْنِ يَتَزَيَّآنِ بِلِباَسِ الْحَرَسِ إلَّا أَنْ طَرَداَ، مُسْتَعِينَيْنِ بِسَوْطٍ، الْأَطْفاَلَ وَالشَّحاَّذِينَ.

وَجَدَ أَبوُّلْيوُسْ نَفْسَهُ مَعْزوُلًا، وَسْطَ الْقِلَّةِ مِمَّنْ لَمْ يَنْصَرِفواُ. اسْتَلَّ مِنْ كِيسِ نُقوُدِهِ قِطْعَتَيْنِ فِضِّيَّتَيْنِ وَأَدىَّ، مُتَهَيِّئاً لِرُؤْيَةِ الْفُرْجَةِ. أَمْسَكَتِ الْمَرْأَةُ قَضِيبَ الْجَحْشِ بِلَهْفَةٍ ثُمَّ - وَهْيَ تَدْعَكُهُ بِشَبَقٍ عَلىَ بَطْنِهاَ - باَشَرَتْ رَقْصَةً فيِ ارْتِخاَءٍ، مُزِيحَةً الْحُجُبَ لِإظْهاَرِ مَفاَتِنِهاَ. دَناَ أَبوُّلْيوُسْ وَرَفَعَ يَداً؛ فَتَحَ الْجَحْشُ فاَهُ، لَكِنْ بَدَلَ أَنْ يَنْهَقَ، تَفَوَّهَ بِأَصْواَتٍ بَشَرِيَّةٍ.

أَناَ لوُكْيوُسْ، قاَلَ، أَلَمْ تَتَعَرَّفْنيِ؟

أَيُّ لوُكْيوُسْ؟، تَساَءَلَ أَبوُّلْيوُسْ.

لوُكْيوُسُكَ، قاَلَ الْجَحْشُ، لوُكْيوُسُ مُغاَمَراَتِكَ، صَدِيقُكَ لوُكْيوُسْ.

رَأى أَپوُلْيُوسْ مِنْ حَوْلِهِ، مُقْتَنِعاً أَنَّ الصَّوْتَ قادِمٌ مِنَ الْأَرْجاءِ، لَكِنَّ بوَأَبَةَ الْأَسْوارِ كانَتْ مُغْلَقَةً، كانَ الْعَسَسُ نائِمينَ، وَمِنْ خَلْفِهِ كانَ يَتنفَّسُ، في صَمْتٍ، اللَّيْلُ الْإفْرِيقِيُّ الْعَميقُ.

هاتِهِ الساَّحِرَةُ رَمَتْني بِتَميمَةٍ مَنْحوُسَةٍ، قالَ الْجَحْشُ، أَسَرَتْني في هَذِهِ الْهَيْئَةِ، وَأَنْتَ الْوَحيدُ الْقادِرُ عَلى عَتْقي، أَنْتَ الْكاتِبُ وَالْأَسْرارِيُّ.

قَفَزَ أَپوُلْيُوسْ نَحْوَ النأَرِ، الْتَقَطَ جَمْرَةً مُتَّقِدَةً، خَطَّ عَلاماتٍ في الْهَواءِ، هَمْهَمَ بِكَلامٍ كانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ مِنَ الْواجِبِ عَلَيْهِ النُّطْقُ بِهِ. صَرَخَتِ الْمَرْأَةُ، بَدَتْ عَلى فَمِها تَكْشيرَةُ اشْمِئْزازٍ، ثُمَّ بَدَأَتْ تَزوُلُ النَّضارَةُ عَنْ وَجْهِها، لِيَتَّخِذَ هَيْئَةَ عَجوُزٍ. وَكَأَنَّ السِّحْرَ انْقَلَبَ عَلَيْها، تَبَخَّرَتِ الْمَرْأَةُ في الْهَواءِ، وَاخْتَفى مَعَها الْبَهالينُ، وَالسوُّرُ الْمُحيطُ بِالْمَدينَةِ وَاللَّيْلُ الْإفْرِيقِيُّ. فَجْأَةً طَلَعَ النَّهارُ: كانَ يَوْماً رائِعاً مُشِعاً، في روُما، كانَ أَپوُلْيُوسْ يَتَجَوَّلُ عَلى طوُلِ الساَّحَةِ الْعامَّةِ صُحْبَةَ صَديقِهِ لوُكْيوُسْ جَنْباً إلى جَنْبٍ. كانا يُثَرْثِرانِ ماشِيَيْنِ، رانِيَيْنِ لِأَجْمَلِ الْإماءِ غادِياتٍ وَرائِحاتٍ عَبْرَ السوُّقِ. في وَقْتٍ ماً، تَوَقَّفَ أَپوُلْيُوسْ، أَمْسَكَ بِلوُكْيوُسْ مِنْ قَميصِهِ، نَظَرَ في عَيْنَيْهِ وَقالَ لَهُ: هَذِهِ اللَيْلَةَ، رَأَيْتُ مَناماً.

٤

حُلْمُ تْشِكوٌّ أَنْجيوُلْيِريٍّ، شاَعِراً وَمُجَدِّفاً

شْيِيناَ، ١٢٦٠ ـ ١٣١٠. كاَنَ طُسْكاَنِياً غَضوُباً وَمُجَدِّفاً، مِماَّ تَسَبَّبَ لَهُ فيِ كَثِيرٍ مِنَ الذَّعاَئِرِ وَالْمُحاَكَماَتِ. بَدَّدَ إِرْثَهُ عَنْ أَبيِهِ وَماَتَ مُعْوِزاً. وَبَيْنَماَ كاَنَ شِعْرُ عَصْرِهِ يَتَغَنىَّ بِالْمَرْأَةِ الْمَلاَئِكِيَّةِ، ماَ كاَنَ مِنْهُ إِلّاَ أَنْ أَنْشَدَ قَصاَئِدَهُ تَغَزُّلاً بِابْنَةٍ خَشِنَةٍ لِدَباَّغِ جُلوُدٍ. شَتاَّمٌ مِنَ الطِّراَزِ الْأَوَّلِ! امْتَدَحَ الْقِماَرَ، الْخَمْرَ، الْماَلَ، احْتِقاَرَ السَّماَءِ وَلَعْنَةَ الْعاَلَمِ.

ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي كَانُونَ الثَّانِي/ يَنايِرْ، بَيْنَما كَانَ مُضْطَجِعاً عَلىَ فِراشٍ مِنَ الْقَشِّ بِمارِسْتَانِ مَدِينَةِ سْيِينا، مَلْفُوفاً فِي ضِمادَاتٍ نَتِنَةٍ، رَأَى تْشِكُّو أَنْجِيولْيِيرِي، الشَّاعِرُ وَالْمُجَدِّفُ، مَناماً. رَأَى أَنَّهُ، فِي يَوْمٍ صَيْفِيٍّ قَائِظٍ، كَانَ مَاراً مِنْ أَمَامِ كَاتِدْرَائِيَّةٍ. وَلِمَعْرِفَتِهِ أَنَّ ذَاكَ الْمَكَانَ كَانَ بَارِداً، فَكَّرَ فِي وُلُوجِهِ هَرَباً مِنَ الْقَيْظِ، لَكِنْ بَدَلَ الرُّكُوعِ وَبَلِّ الْيَدِ فِي الْماءِ الْمُبَارَكِ، قَاطَعَ أُصْبُعَيْهِ فِي شَكْلِ صَلِيبٍ تَعْزِيماً، لِأَنَّهُ كَانَ يَخافُ مِنْ أَنْ يَجُرَّ عَلَيْهِ هَذَا الْمَكَانُ وَيْلًا.

كَانَ يَتَواجَدُ فِي الْكَنِيسِ الْأَوَّلِ يُمْنَةً أَحَدُ الرَّسَّامِينَ مُنْهَمِكاً فِي رَسْمِ السَّيِّدَةِ الْعَذْرَاءِ. كَانَ الرَّسَّامُ فَتىً أَشْقَرَ، يَقْتَعِدُ كُرْسِيّاً، مَعَ طَبَقِ الْأَصْبَاغِ بَيْنَ الذِّرَاعَيْنِ، فِي وَضْعٍ مُرِيحٍ. كَانَتِ اللَّوْحَةُ الْمُقَدَّسَةُ عَلىَ وَشَكِ الاكْتِمَالِ: كَانَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِعَذْرَاءَ ذَاتِ عُيُونٍ مَائِلَةٍ وَبَسْمَةٍ يَصْعُبُ إِدْرَاكُهَا، مُمْسِكَةً بِالسَّيِّدِ الْمَسِيحِ طِفْلًا فَوْقَ رُكْبَتَيْهَا، بَيْنَ ثَنَايَا الْأَرْدِيَةِ. حَيَّاهُ الرَّسَّامُ بِمَوَدَّةٍ، فَأَجَابَهُ تْشِكُّو أَنْجِيولْيِيرِي بِضَحَكَاتٍ مُفَرْقِعَةٍ. ثُمَّ أَخَذَ يَنْظُرُ لِلَّوْحَةِ، فَأَحَسَّ بِغَثَيَانٍ شَدِيدٍ. كَانَتْ تَقَاسِيمُ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمُتَعَاظِمَةِ تُعَكِّرُ مِزَاجَهُ؛ كَانَتْ

تَنْظُرُ لِلْعالَمِ بِزَهْوٍ، كَأَنَّها تَزْدَرِي بِشِدَّةٍ الْأَشْياءَ الْأَرْضِيَّةَ. كانَ الْأَمْرُ فَوْقَ طاقَتِهِ: دَنا مِنَ اللَّوْحَةِ وَأَوْمَأَ لَها بِحَرَكَةٍ فاحِشَةٍ مُمُدِّداً يُمْناهُ قُدُماً. قَفَزَ الرَّسّامُ الْفَتِيُّ مِنْ كُرْسِيِّهِ وَحاوَلَ إِيْقافَهُ، لَكِنَّ تْشِكُّو أَنْجيوُلْيري، كَمَنْ بِهِ مَسٌّ، تَخَبَّطَ وَأَوْمَأَ لَها بِحَرَكَةٍ فاحِشَةٍ أُخْرى بِيُسْراهُ. فَحَرَّكَتِ الْعَذْراءُ عَيْنَيْها كَما لَوْ كانَتا آدَمِيَّتَيْنِ وَصَعَقَتْهُ بِنَظْرَتِها الثّاقِبَةِ. أَحَسَّ تْشِكُّو أَنْجيوُلْيري بِرَعْشَةٍ غَريبَةٍ تَسْري في كُلِّ جَسَدِهِ، بَدَأَ يَنْكَمِشُ وَيَتَقَزَّمُ، رَأى أَطْرافَهُ وَقَدْ بَدَأَ يَكْسوُها زَغَبٌ داكِنٌ، وَتَنَبَّهَ لِذَيْلٍ طَويلٍ بَدَأَ يَنْمو بَيْنَ ساقَيْهِ؛ كانَ يُفَكِّرُ في الصُّراخِ، لَكِنْ عِوَضاً عَنْهُ، خَرَجَ مِنْ فَمِهِ مُواءٌ مُفْزِعٌ، ثُمَّ وَعى أَنَّهُ صارَ قِطّاً قَزَماً وَهَلِعاً عِنْدَ قَدَمَيِ الرَّسّامِ. نَطَّ قُدُماً وَخَلْفاً، وَكَمَنْ جُنَّ بِسَبَبِ السِّجْنِ الْبَشِعِ لِهَذا الْجَسَدِ الْجَديدِ، ثُمَّ صَرَّ بِأَسْنانِهِ، حانِقاً، وَخَرَجَ مِنَ الْكَنيسَةِ وَهْوَ يَموُءُ بِوَحْشِيَّةٍ. إِلى هُناكَ، كانَ الظَّلامُ قَدْ خَيَّمَ عَلى السّاحَةِ. سارَ تْشِكُّو أَنْجيوُلْيري بِمُحاذاةِ الْجِدارِ أَوَّلاً، ثُمَّ نَظَرَ مِنْ حَوْلِهِ لِلتَّيَقُّنِ إِنْ كانَ ثَمَّةَ مَنْ يَنْتَبِهُ إِلَيْهِ. لَكِنَّ السّاحَةَ كانَتْ مُقْفِرَةً تَقْريباً. عِنْدَ الرُّكْنِ، قُرْبَ حانَةٍ، كانَتْ جَماعَةٌ مِنَ الْفِتْيَةِ يَبْدوُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ سَفَلَةِ الْقَوْمِ قَدْ جَلَبوا مَعَهُمْ نَياطِلَ خارِجاً وَبَدَؤوا يَنْتَشوُنَ. فَكَّرَ تْشِكُّو أَنْجيوُلْيري في الْمُروُرِ أَمامَ الْحانَةِ، لِأَنَّهُ كانَ جائِعاً، عَلَّهُ يَجِدُ قِشْرَ جُبْنَةٍ مَرْمِيّاً. سارَ عَلى طوُلِ جِدارِ الْحانَةِ، مَرَّ أَمامَ الْبابِ الَّذي كانَتْ تُضيئُهُ شُعْلَتانِ

مُـعَـلَّقَـتَـانِ فـي الإِطَـارِ. فـي تِـلْكَ الـلَّحْـظَـةِ، نَـادَاهُ أَحَـدُ الْفِـتْـيَـةِ الْخِسيِّسِينَ، وَهْوَ يُحاكِي الصَّوْتَ الْخاصَّ الَّذِي تُحْدِثُهُ شِفاهُ الْقِطَطِ، ثُمَّ أَراهُ لُفافَةَ قِطْعَةِ جُمبُونٍ. هَرَعَ تْشِكوُ أَنْجيوُلْيِرِيِّ عِنْدَ قَدَمَيْهِ وَأَمْسَكَ بِاللُّفافَةِ بَيْنَ فَكَّيْهِ، لَكِنَّ الْفِتْيَةَ الْخِسِّسِينَ قَبَضوا عَلَيْهِ وَضَغَطوا عَلَيْهِ بِشِدَّةٍ وَحَمَلوُهُ داخِلَ الْحانَةِ. حاوَلَ تْشِكوُ أَنْجيوُلْيِرِيِّ أَنْ يَعُظَّ وَأَنْ يَسْتَعْمِلَ مَخالِبَهُ، لَكِنَّ الْخِسيِّسِينَ كانوا يُمْسِكوُنَ جَيِّداً بِخِناقِهِ: كانَ أَحَدُهُمْ يَضْغَطُ عَلى فَمِهِ، أَمَّا الْآخَروُنَ فَقَدْ شَلوا قَوائِمَهُ، بِحَيْثُ لَمْ يَكُنْ يَسْتَطيعُ حِراكاً. عِنْدَما صاروا داخِلَ الْحانَةِ، أَخَذَ الْفِتْيَةُ الْخِسيِّسوُنَ إِناءَ الزِّفْتِ الَّذِي كانَ يُسْتَعْمَلُ لِلشُّعْلاتِ وَطَلَوا بِدِقَّةٍ زَغَبَهُ بِالدِّهانِ. ثُمَّ أَلْهَبوُهُ بِشُعْلَةٍ وَأَطْلَقوا سَراحَهُ. انْسَرَبَ تْشِكوُ أَنْجيوُلْيِرِيِّ خارِجَ الْحانَةِ، بَعْدَ أَنْ صارَ كُرَةً نارِيَّةً، وَهْوَ يَموُءُ بِفَظاعَةٍ، انْطَلَقَ يَحُكُّ جِلْدَهُ عَلى جُدْرانِ الْبيُوتِ، ثُمَّ تَمَرَّغَ في الْأَرْضِ، لَكِنَّ النارَ لَمْ تَنْطَفِئْ. أَخَذَ يَتَسَكَّعُ في الْأَزِقَّةِ الضَّيِّقَةِ الْمُعْتِمَةِ لِسْيِيناً كَالْبَرْقِ، وَهْوَ يُنيرُها أَثْناءَ عُبوُرِهِ. لَمْ يَكُنْ يَدْري أَيْنَ الْمَفَرُّ، مُنْقاداً لِغَريزَتِهِ. انْعَطَفَ مَرَّتَيْنِ، عَبَرَ ثَلاثَةَ أَزِقَّةٍ، اخْتَرَقَ ساحَةً، صَعَدَ أَدْراجاً، وَصَلَ أَمامَ قَصْرٍ. هُنا كانَ يَعيشُ والِدُهُ. صَعَدَ تْشِكوُ أَنْجيوُلْيِرِيِّ الدَّرَجَ الْكَبيرَ، مَرَّ أَمامَ الْخَدَمِ الْمُفْزَعينَ، وَلَجَ قاعَةَ الْأَكْلِ حَيْثُ كانَ يَتَناوَلُ أَبوُهُ طَعامَ الْعَشاءِ وَصاحَ: أَبَتِي، لَقَدْ صِرْتُ ناراً، أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ،

أَغِثْنِي! وَفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ بِالذأَتِ اسْتَفاَقَ تْشِكوُّ أَنْجيوُلْيِريّ. كاَنَ الْأَطِباَّءُ يُزيِلوُنَ ضِماَداَتِهِ وَكاَنَ جَسَدُهُ الْمُثْخَنُ بِجِراَحِ ناَرِ الْقِديِسِ أَنْطُواَنِ الرَّهيِبَةِ يُحْرِقُهُ كَاللَّهَبِ.

٥

حُلْمُ فْرَنْصْواَ ڤيوُّنْ،
شاَعِراً وَصُعْلوُكاً



وُلِدَ في ١٤٣١ وَتَضاَرَبَتِ الْآراَءُ حَوْلَ سَنَةِ وَفاَتِهِ. كاَنَ اسْمُهُ الْحَقيِقيُّ فْرَنْصْواَ دوُ موُنْكوُرْبْيي François de Montcorbier، لَكِنَّهُ انْتَسَبَ لِكَفيِلِهِ الَّذي كاَنَ لَهُ عِوَضاً عَنِ الْأَبِ. كاَنَتْ حَياَتُهُ تَعْرِفُ اللَّا اسْتِقْراَرَ وَالتَّسَكُّعَ. قَتَلَ راَهِباً خِلاَلَ إِحْدى مُشاَجَراَتِهِ، شاَرَكَ في أَعْماَلِ السَّلْبِ وَالنَّهْبِ [حاَلَةٌ كَثيِرَةُ الشَّبَهِ بِالصَّعاَليِكِ الْعَرَبِ]، مِماَّ اسْتَدْعى الْحُكْمَ عَلَيْهِ بِإِعْداَمٍ خُفِّفَ إِلىَ حُكْمٍ بِالنَّفْيِ. احْتَفى كَثيِراً فيِ غِناَئِياَّتِهِ بِلَهْجَةِ قُطاَّعِ الطُّرُقِ الَّذيِنَ عاَشَرَهُمْ. في دِيْواَنِهِ الْوَصِيَّةُ الْكُبْرى Le grand testament أَنْشَدَ الْحُبَّ وَالْمَوْتَ، الْحِقْدَ وَالْفَقْرَ، الْجوُعَ وَالْإِجْراَمَ وَالنَّدَمَ.

فَجْرَ أَعْيادِ الْميلادِ سَنَةَ ١٤٥١، بَيْنَماَ كانَ مُسْتَغْرِقاً في أَخِرِ غَفْوَةٍ لَهُ، رَأى فْرَنْصْواَ فيوُّنْ، الشاعِرُ وَالصُّعْلوُكُ، مَناماً. رَأى أَنَّ الْقَمَرَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ في اكْتِمالٍ وَأَنَّهُ كانَ يَعْبُرُ بَراحاً مُوْحِشاً. تَوَقَّفَ لِتَناوُلِ قِطْعَةِ خُبْزٍ اِسْتَلَّها مِنْ بُقْجَتِهِ وَجَلَسَ عَلى حَجَرٍ. رَنا لِلسَّماءِ وَأَحسَّ بِضَيْقٍ شَديدٍ. ثُمَّ واصَلَ طَريقَهُ لِيَبْلُغَ نُزْلاً. كانَ عِبارَةً عَنْ بَيْتٍ مُعْتِمٍ هادِئٍ، لَرُبَّماَ كانَ أَهْلُهُ يَغُطوُّنَ في سُباتِهِمْ. طَرَقَ فْرَنْصْواَ فيوُّنْ الْبابَ بِإلْحاحٍ، فَهَرَعَتْ زَوْجَةُ صاحِبِ النُّزْلِ لِتَفْتَحَ لَهُ.

عَمَّ تَبْحَثُ في هاتِهِ الساعَةِ، أَيُّها الصُّعْلوُكُ؟، قالَتْ زَوْجَةُ صاحِبِ النُّزْلِ وَهْيَ تُنيرُ وَجْهَ فيوُّنْ بِفانوُسِها.

أَبْحَثُ عَنْ أَخي، أَجابَ فْرَنْصْواَ فيوُّنْ، فَقَدْ شوُهِدَ لِآخِرِ مَرَّةٍ في هَذِهِ النَّواحي، وَأَنا أُريدُ الْعُثوُرَ عَلَيْهِ.

وَلَجَ النُّزْلَ الْمُعْتِمَ، تُنيرُهُ فَقَطْ نارٌ خافِتَةٌ، وَجَلَسَ عِنْدَ مائِدَةٍ.

أُريدُ شَريحَةً مِنْ لَحْمِ الْخَروُفِ وَنَبيذاً، قالَ في طَلَبِيَّتِهِ، وَبَقِيَ يَنْتَظِرُ. أَتَتْهُ زَوْجَةُ صاحِبِ النُّزْلِ بِإناءٍ حَساءٍ بِالْكُرُنُبِ الْمَلْفوُفِ

وَإبْرِيقٍ لِنَبيذِ التُّفَّاحِ الْمُخَمَّرِ. هَذاَ كُلُّ ماَ لَدَيْناَ هَذاَ الْمَساَءَ، قاَلَتْ، وَلَكَ كُلُّ السُّلْوانِ، أَيُّهاَ الصُّعْلوُكُ، لِأَنَّ الْعَسَسَ يَغْدوُنَ وَيَروُحوُنَ فيِ الْمَنْطَقَةِ، وَقَدْ أَتَواْ عَلىَ كُلِّ أَقْواَتِناَ.

بَيْنَماَ كاَنَ فيوُّنْ يَأْكُلُ، دَخَلَ رَجُلٌ عَجوُزٌ، مَلْفوُفَ الْوَجْهِ بِالْخِرَقِ. كاَنَ أَبْرَصَ، يَسْتَنِدُ لِعَصاً. نَظَرَ إلَيْهِ فيوُّنْ دوُنَ أَنْ يَنْبس بِبِنْتِ شَفَةٍ. جَلَسَ الْأَبْرَصُ فيِ الطَّرَفِ الْآخَرِ مِنَ الْغُرْفَةِ، قُرْبَ النأَرِ، وَقاَلَ: أَبْلَغوُنيِ أَنَّكَ تَبْحَثُ عَنْ أَخيِكَ.

تَحَسَّسَ فيوُّنْ خِنْجَرَهُ بِخِفَّةٍ، لَكِنَّ الْأَبْرَصَ أَوْقَفَهُ بِحَرَكَةٍ رَشيِقَةٍ. لَسْتُ مُتَوَرِّطاً مَعَ الْعَسَسِ، قاَلَ، أَناَ مَعَ الصَّعاَليِكِ وَأَسْتَطيِعُ أَنْ أَقوُدَكَ حَتىَّ أَخيِكَ. دَناَ مِنَ الْباَبِ اسْتِناَداً إلىَ عَصاَهُ وَتَبِعَهُ فيوُّنْ. خَرَجاَ فيِ الْبَرْدِ الشَّتْوِيِّ. كاَنَتْ لَيْلَةً قَمْراَءَ وَكاَنَ الثَّلْجُ فيِ الْحُقوُلِ جَمَداً. كاَنَ يَمْتَدُّ حَوْلَهُمْ بَراَحٌ قاَحِلٌ، عَلىَ جُنُباَتِهِ مَنْظَرٌ جاَنِبِيٌّ مُعْتِمٌ لِرَواَبٍ تَكْسوُهاَ الْأَحْراَجُ. سَلَكَ الْأَبْرَصُ دَرْباً وَتَوَجَّهَ، بِعَناَءٍ، نَحْوَ الرَّواَبيِ. تَبِعَهُ فيوُّنْ، وَيَداَهُ عَلىَ خِنْجَرِهِ، اتِّقاَءً لِهَوْلِ ماَ قَدْ يَقَعُ.

عِنْدَماَ لاَحَ فيِ الطَّريِقِ مُرْتَفَعٌ، تَوَقَّفَ الْأَبْرَصُ وَجَلَسَ فَوْقَ حَجَرٍ. اسْتَلَّ مِنْ بُقْجَتِهِ مِزْماَراً طيِنِياًّ، وَشَرَعَ فيِ عَزْفِ لَحْنٍ فيِهِ نَغْمَةُ أَباَبَةٍ. مِنْ حيِنٍ لِآخَرَ، كاَنَ يَتَوَقَّفُ وَيُنْشِدُ مَقاَطِعَ مِنْ غِناَئِيَّةٍ

لِقَاطِعِ طَرِيقٍ يَحْكِي عَنِ اِنْتِهاَكِ أَعْراَضٍ وَصَعاَلِيكَ، عَنْ لُصوُصِيَّةٍ وَجَنْدَرْمَةٍ. كاَنَ ڤيوُّنْ يَسْمَعُ إِلَيْهِ وَيَرْتَعِشُ، لِأَنَّهُ كاَنَ يَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْغِناَئِيَّةَ تَعْنِيهِ. أَحَسَّ بِخَوْفٍ أَطْبَقَ عَلىَ أَحْشاَئِهِ. لَكِنْ مِمَّ كاَنَ تَخَوُّفُهُ بِالضَّبْطِ؟ لَمْ يَكُنْ يَدْرِي، لِأَنَّهُ لاَ يَهاَبُ الْجَنْدَرْمَةَ، وَلاَ الْعَتْمَةَ وَلاَ الْأَبْرَصَ. أَحَسَّ بِأَنَّ هَذاَ الْخَوْفَ كاَنَ مِنْ قَبِيلِ تَأْنِيبِ الضَّمِيرِ، مَصْحوُباً بِآلاَمٍ حاَدَّةٍ.

اِنْتَصَبَ الْأَبْرَصُ، تَبِعَهُ ڤيوُّنْ صَوْبَ الْأَحْراَجِ. عِنْدَماَ بَلَغاَ أَوَّلَ شَجَرَةٍ، لاَحَظَ ڤيوُّنْ أَنَّ مَشْنوُقاً كاَنَ مَعَلَّقاً بِالْأَغْصاَنِ. كاَنَ لِساَنَهُ خاَرِجاً، وَكاَنَ الْقَمَرُ يُلْقِي عَلىَ جُثَّتِهِ ضِياَءً شاَحِباً. كاَنَ مَجْهوُلًا مِنْ لَدُنِهِ، فَواَصَلَ ڤيوُّنْ طَرِيقَهُ. عَلىَ الشَّجَرَةِ الْمُجاَوِرَةِ بِدَوْرِهاَ، كاَنَ ثَمَّةَ مَشْنوُقٌ مُعَلَّقٌ بِالْأَغْصاَنِ، كاَنَ بِدَوْرِهِ مَجْهوُلًا. نَظَرَ ڤيوُّنْ مَنْ حَوْلِهِ فَرَأَى أَنَّ الْحَرَجَ مَلِيءٌ بِالْجُثَثِ الْمُعَلَّقَةِ بِالْأَشْجاَرِ. نَظَرَ إِلَيْهاَ واَحِدَةً واَحِدَةً، بِسَكِينَةٍ، مُتَنَقِّلًا بَيْنَ الْأَرْجُلِ الَّتِي كاَنَ يُؤَرْجِحُهاَ النَّسِيمُ، إِلىَ أَنْ عَثَرَ عَلىَ أَخِيهِ. فَكَّهُ إِذْ قَطَعَ الْحَبْلَ بِخَنْجَرِهِ وَمَدَّدَهُ عَلىَ الْعُشْبِ. كاَنَتِ الْجُثَّةُ جاَمِدَةً، بِسَبَبِ الْمَوْتِ وَالْجَمَدِ. قَبَّلَهُ ڤيوُّنْ عَلىَ جَبِينِهِ. وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، نَطَقَتْ جُثَّةُ أَخِيهِ. الْحَياَةُ هُناَ مُتْرَعَةٌ بِالْفَراَشاَتِ الْبِيضِ الَّتِي تَنْتَظِرُكَ، أُخَيَّ، قاَلَتِ الْجُثَّةُ، أَماَّ أُوْلاَءِ فَكُلُّهُمْ أَشْباَحٌ.

رَفَعَ فيوُنْ رَأْسَهُ، شارِداً. اخْتَفى رَفيقُ طَرِيقِهِ، وَمِنَ الْغابَةِ، كَقُداَسٍ جَنائِزِيٍّ هائِلٍ يُنْشَدُ بِخُفوُتٍ، كانَتْ تَتَعالى الْغِنائِيَّةُ الَّتي أَنْشَدَها الأَبْرَصُ مِنْ قَبْلُ.

٦

حُلْمُ فْرَنْصْواَ رابْلي،
كاَتِباً وَراَهِباً تَخَلىَّ عَنْ إسْكيمِهِ



١٤٩٤ ـ ١٥٥٣. كاَنَ راَهِباً عَلىَ طَرِيقَةِ الْإِخْوَةِ الدوُمِنيكاَنْ، تَخَلىَ عَنْ إسْكيمِهِ لِيَصيرَ طَبيباً مَشْهوُراً بِمُسْتَشْفىَ مَدينَةِ لِيوُنْ Lyon. لَكِنَّهُ لَمْ يَتَخلَّ أَبَداً عَنْ عاَداَتِ الزُهاَّدِ. كاَنَ ظَليعاً في الثَّقاَفَةِ اللاَّتينِيَّةِ. لَمْ تَكُنِ السُلُطاَتُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الرِّضاَ لِأَفْكاَرِهِ التَّقَدُّمِيَّةِ. لِلسُّمُوِّ بِصِياَمِهِ الَّذي كاَنَ مِنْ صَميمِ عاَداَتِهِ في التَّزَهُّدِ، ماَ كاَنَ مِنْهُ رُبَّماَ إِلَّا أَنْ كَتَبَ كِتاَباً خاَلِداً، وأَبْدَعَ خياَلُهُ عِمْلاَقَيْنِ، گَرْگاَنْتُواَ Gargantua وبِنْطاَگريِيلْ Pantagruel، أَكوُلاَ وَطاَلِباَ اللَّذَةِ الْمُمَيَّزاَنِ فِي الْآداَبِ الْغَرْبِيَّةِ بِأَسْرِهاَ.

ذاتَ لَيْلَةٍ مِنْ لَيالي شُباطْ/ فَبْرايِرْ ١٥٣٢، في مُسْتَشْفى مَدينَةِ لِيوُنْ[١]، وَبَيْنَما كانَ راقِداً في الْغُرَيْفَةِ الْمُتَقَشِّفَةِ الَّتي خُصِّصَتْ لَهُ كَطَبيبٍ، بَعْدَ سَبْعَةِ أَيامٍ مِنَ الصَّوْمِ تَقَيُّداً بِالنِّظامِ الَّذي واصَلَ تَطْبيقَهُ وَلَوْ أَنَّهُ غادَرَ الْكَهَنوُتَ، رَأى فْرَنْصْوا رابْلي، الْكاتِبُ وَالراهِبُ الْمُتَخَليِّ عَنْ إِسْكيمِهِ، مَناماً. رَأى أَنَّهُ يَتَواجَدُ تَحْتَ دَعائِمِ كَرْمَةٍ بِأَحَدِ نُزُلِ مَنْطَقَةِ الْپِريگوُرْ[٢]، في أَحَدِ أَيامِ أَيْلوُلَ/ شْتَنْبِرْ. كانَتْ ثَمَّةَ مائِدَةٌ طَويلَةٌ مُصَغَّرَةُ الْعَرْضِ، مُعَدَّةٌ سَلَفاً، بِشِرْشِفٍ ذي بَياضٍ ناصِعٍ، مُحَمَّلَةٌ بِدَوارِقِ النَّبيذِ، وَكانَ جالِساً عِنْدَ أَحَدِ أَطْرافِ الْمائِدَةِ. أَماَّ الطَّرَفُ الْمُقابِلُ فَكانَ مُجَهَّزاً لِشَخْصٍ آخَرَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَدْري مَنْ يَكوُنُ، كانَ يَعْرِفُ فَقَطْ أَنَّ عَلَيْهِ الْانْتِظارَ. وَبَيْنَما كانَ يَنْتَظِرُ، أَتاهُ صاحِبُ النُّزْلِ بِطَبَقٍ مِنَ الزَّيْتوُنِ الْمُخَلَّلِ الْمَنْقوُعِ في الْمَرَقِ وَبِنَيْطِلٍ مِنْ نَبيذِ التُّفاَّحِ الطاَّزَجِ، فَبَدَأَ يَأْكُلُ مُرْتَشِفاً النَّبيذَ الْعَذْبَ ذا اللَّوْنِ الْعَنْبَرِيِّ الزاَّهي. في لَحْظَةٍ

---

(١) Lyon.

(٢) Le Périgord.

ماَ، سَمِعَ قَرْقَعَةَ قباَقِيبٍ وَرَأىَ غَيْمَةً مِنَ الْغُبارِ تَدْنوُ علىَ الطَّرِيقِ الرَّئِيسَةِ. كاَنَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِعَرَبَةِ جِياَدٍ ذاَتِ هَيْبَةٍ مَلَكِيَّةٍ، بِحُوذِيٍّ يَتَزَيىَّ بِالْأَحْمَرِ وَتاَبِعَيْنِ واَقِفَيْنِ عَلىَ سَلاَلِمِ الْعَرَبَةِ. تَوَقَّفَتِ الْجِياَدُ فيِ مَرَجِ النُّزْلِ، نَفَخَ التاَّبِعاَنِ فيِ الْبوُقِ نَفْخَتَيْنِ ثُمَّ هَبَطاَ عَلىَ عَجَلٍ لِحَلِّ بِساَطٍ أَحْمَرَ أَماَمَ باَبِ الْعَرَبَةِ. أَدَّياَ التَّحِيَّةَ الْعَسْكَرِيَّةَ وَصاَحاَ: صاَحِبُ الْجَلاَلَةِ الْمُعَظَّمُ پأَنْطاَگْرِيِيّلْ(١)، مَلِكُ الْأَقْواَتِ وَالْأَنْبِذَةِ! وَقَفَ راَبْليِ، لِأَنَّهُ فَهِمَ أَنَّ مُناَدِمَهُ قَدْ وَصَلَ، وَقَدْ كاَنَ يَتَقَدَّمُ بِجَلاَلٍ فَوْقَ الْبِساَطِ الْأَحْمَرِ الَّذِي حَلَّهُ التاَّبِعاَنِ عِنْدَ قَدَمَيْهِ. كاَنَ رَجُلًا رَفِيعَ الْقاَمَةِ، كاَنَ يَتَقَدَّمُ مُتَحَسِّساً بَطْنَهُ بِكِلْتاَ يَدَيْهِ، كِرْشاً ضَخْمَةً كَقِرْبَةٍ، كاَنَتْ تَتَأَرْجَحُ ذاَتَ الْيَمِينِ وَذاَتَ الشِّماَلِ. كاَنَتْ تُؤَطِّرُ وَجْهَهُ لِحْيَةٌ كَثَّةٌ سَوْداَءُ، وَكاَنَ يَعْتَمِرُ قُبَّعَةً كَبِيرَةً ذاَتَ حَواَفٍّ واَسِعَةٍ. تَثَنَّتْ شَفَتاَ صاَحِبِ الْجَلاَلَةِ الْمُعَظَّمِ پأَنْطاَگْرِيِيّلْ فيِ هَيْأَةِ ابْتِساَمَةٍ وَدوُدَةٍ، شَمَّرَ أَكْماَمَ ثَوْبِهِ الْمَلَكِيِّ وَجَلَسَ عِنْدَ الطَّرَفِ الْآخَرِ مِنَ الْماَئِدَةِ. قَدِمَ صاَحِبُ النُّزْلِ، مَتْبوُعاً بِسُلْطاَنِيَّةِ حَساَءٍ تَتَصاَعَدُ مِنْهاَ الْأَبْخِرَةُ وَيَحْمِلُهاَ خاَدِماَنِ، ثُمَّ بَدَأَ يَسْكُبُ فيِ طَبَقِهِ ماَ شاَءَ. حَساَءُ شَعِيرٍ، وَقَمْحٍ وَفاَصوُلْياَ ـ كَذاَ أَعْلَنَ لِضَيْفِهِ وَهْوَ مُنْهَمِكٌ فيِ خِدْمَةِ نَفْسِهِ ـ لِتَرْوِيضِ الْمَعِدَةِ أَوَّلِياًّ. عَقَدَ صاَحِبُ

(١) Pantagruel, 1532.

الْجَلاَلَةِ الْمُعَظَّمُ بِأَنْطاَكَرِيِيّلْ مِنْشَفَةً كَبِيرَةً بِحَجْمِ إِزاَرٍ حَوْلَ عُنُقِهِ وَأَوْمَأَ لِفِراَنْصْواَ راَبْلِي بِإِمْكاَنِيَّةِ الْبَدْءِ. كاَنَ حَساَءً مُشَكَّلاً مِنْ حَباَّتٍ كاَنَتْ تَسْبَحُ فِيهاَ وَرَقاَتُ الْغاَرِ وَفُصوُصُ الثَّوْمِ، أُكْلَةٌ شَهِيَّةٌ حَقاًّ. تَناَوَلَ مِنْهاَ فْراَنْصْواَ راَبْلِي مِلْءَ طَبَقٍ بِالْتِذاَذٍ، فِي حِينِ أَنَّ صاَحِبَ الْجَلاَلَةِ الْمُعَظَّمَ بِأَنْطاَكَرِيِيّلْ، بَعْدَ أَنْ طَلَبَ الإِذْنَ بِكُلِّ أَدَبٍ، أَدْنَى السُّلْطاَنِيَّةَ مِنْهُ وَبَدَأَ يَشْرَبُ مِنْهاَ الْحَساَءَ مُباَشَرَةً. فِي تِلْكَ الْأَثْناَءِ، أَتَى الْخَدَمُ بِأَكْلاَتٍ أُخْرَى، وَكاَنَ صاَحِبُ النُّزْلِ، بِكُلِّ نَباَهَةٍ، يَمْلَأُ الصُّحوُنَ. كاَنَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِإِوَزٍّ مَحْشُوٍّ. كاَنَتْ مَنْهاَ لِفِرَنْصْواَ راَبْلِي فَرْخَتاَنِ، أَماَّ نَصِيبُ صاَحِبِ الْجَلاَلَةِ الْمُعَظَّمِ بِأَنْطاَكَرِيِيّلْ مِنْهاَ فَكاَنَ تِسْعَةَ عَشَرَ. ياَ صاَحِبَ النُّزْلِ، صاَحَ الْمُضِيفُ الْجَلِيلُ، خَبِّرْنِي كَيْفَ يُعَدُّ هَذاَ الْإِوَزُّ، لِيَكوُنَ بِإِمْكاَنِي تَبْلِيغُ ذَلِكَ لِطَباَّخِي. مَسَّدَ صاَحِبُ النُّزْلِ شاَرِبَيْهِ الطَّوِيلَيْنِ، رَقَّ صَوْتُهُ وَقاَلَ: قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، يَنْبَغِي تَناَوُلُ رَبْطَةٍ جَيِّدَةٍ مِنَ الْكُرُنْبِ الْمُمَلَّحِ وَالْمُخَلَّلِ وَطَبْخُهاَ طِيلَةَ أَرْبَعِ أَوْ خَمْسِ دَقاَئِقَ. بَعْدَ ذَلِكَ يَنْبَغِي تَذْوِيبُ دُهوُنِ الْإِوَزِّ وَصَبُّهاَ فَوْقَ الْكُرُنْبِ مَعَ بَعْضِ الْوَدَكِ، وَثِماَرِ الْعَرْعَرِ، وَبَعْضِ أَعْواَدِ زِرِّ الْقُرُنْفُلِ، مِلْحٌ وَفُلْفُلٌ أَسْوَدُ، بَصَلٌ مَفْروُمٌ، وَفِي الْأَخِيرِ يُطْهَى هَذاَ الْخَلِيطُ لِمُدَّةِ ثَلاَثِ ساَعاَتٍ. ثُمَّ نُضِيفُ قِطَعَ الْجَمْبوُنِ وَكَبِدَ الْإِوَزِّ الْمُشَرَّحَ، فَنَسْتَجْمِعُ الطَّبْخَةَ بِفُتاَتِ الْخُبْزِ. نَحْشوُ الْإِوَزَّ بِهَذاَ الْمَرَقِ، لِنَضَعَ الْكُلَّ فِي الْفُرْنِ

لِأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً. يَنْبَغِي أَنْ نَتَذَكَّرَ، فِي مُنْتَصَفِ الطَّبِيخِ، أَنَّهُ يَنْبَغِي اسْتِجْمَاعُ الشُّحُومِ عِنْدَمَا تَبْدَأُ فِي التَّقَلُّصِ لِسَكْبِهَا فَوْقَ الْحُشْوَةِ، لِيَكُونَ الطَّبَقُ مُعَداً فِي الْأَخِيرِ. عِنْدَ سَمَاعِ هَذَا الْوَصْفِ، انْفَتَحَتْ شَهِيَّةُ فْرَنْصْوا رَابْلِي، أُسْوَةً بِمُضِيفِهِ، فِيمَا يَبْدُو عَلَى الْأَقَلِّ، مَا دَامَ قَدْ لَحَسَ طَوِيلًا شَارِبَهُ بِلِسَانِهِ الْمَدِيدِ، قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَ فِي الْأَخِيرِ: وَالْآنَ، يَا سَيِّدَ النُّزْلِ، مَاذَا تَقْتَرِحُ عَلَيْنَا؟ صَفَّقَ بِكِلْتَا يَدَيْهِ فَأَتَى الْخَدَمُ بِأَطْبَاقٍ جَدِيدَةٍ سَاخِنَةٍ. طُيُورٌ مُسَمَّنَةٌ مُعَدَّةٌ بِمَاءِ الْحَيَاةِ الْمُسْتَخْلَصِ مِنَ الْبَرْقُوقِ وَدَجَاجُ التُّدْرُجِيَّةِ مُعَداً بِجُبْنِ الرُوكْفُورْ، صَاحَ صَاحِبُ النُّزْلِ بِعَيْنِ الرِّضَا، ثُمَّ أَخَذَ يَخْدُمُ ضَيْفَيْهِ. بَدَأَ فْرَانْصْوَا رَابْلِي، بِكُلِّ جَذْوَةٍ، بِأَكْلِ طَيْرٍ مُسَمَّنٍ وَ دَجَاجَةٍ تُدْرُجِيَّةٍ، بَيْنَمَا كَانَ صَاحِبُ الْجَلَالَةِ الْمُعَظَّمُ بِأَنْطَاكَرِيِيّلْ يَلْتَهِمُ مِنْهَا عَشْراً. لَا أَدْرِي لِمَ، قَالَ صَاحِبُ الْجَلَالَةِ الْمُعَظَّمُ بِأَنْطَاكَرِيِيّلْ، وَلَكِنْ يَبْدُو لِي أَنَّ حَسَاءَ الْمُخِّ قَدْ يَتَلَاءَمُ جَيِّداً مَعَ هَذِهِ الطُّيُورِ الْمُسَمَّنَةِ، مَا عَسَاكَ تَقُولُ يَا ضَيْفِي الْعَزِيزَ؟ اسْتَحْسَنَ فْرَانْصْوَا رَابْلِي الْأَمْرَ، وَمَا كَانَ مِنْ صَاحِبِ النُّزْلِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا فِي انْتِظَارِ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ صَفَّقَ بِيَدَيْهِ. أَتَى الْخَدَمُ بِصَحْنَيْنِ مُتْرَعَيْنِ حَتَّى الْحَوَافِّ بِحَسَاءِ الْمُخِّ. وَضَعَ صَاحِبُ الْجَلَالَةِ الْمُعَظَّمُ بِأَنْطَاكَرِيِيّلْ صَحْناً كَامِلًا فِي قِطْعَةِ خُبْزٍ بِطُولِ مِتْرٍ، وَبَيْنَ لُقْمَتَيْ طُيُورٍ مُسَمَّنَةٍ أَخَذَ يَعُضُّ بِحَيْثُ أَنْهَاهَا فِي دَقِيقَتَيْنِ. عِنْدَمَا فَرَغَا، طَلَبَ سَيِّدُ النُّزْلِ الْإِذْنَ بِسَحْبِ

الْأَطْبَاقِ الْمُتَّسِخَةِ وَسَأَلَ: ماَ عَسى سَيِّدَيَّ يَقولَانَ عَنْ قَليلٍ مِنْ لَحْمِ الْخِنْزيرِ الْبَرِّيِّ، إلَّا إذاَ اسْتَحْسَناَ شَرائِحَ الْأَرْنَبِ الْمَحْشُوَّةَ وَالْمَقْلِيَّةَ أَكْثَرَ؟ تَقْديراً لِأَحْسَنِ الْأُمورِ، اقْتَرَحَ فْرانْصْواَ رابْلي أَنْ يُؤْتى بِالْأَكْلَتَيْنِ مَعاً. فَغَرَ صاحِبُ الْجَلالَةِ الْمُعَظَّمُ بِأَنْطاكَرِييِّلْ فاهُ لِتَأْكيدِ أَنَّ شَهِيَّتَهُ ماَ زالَتْ مَفْتوحَةً. صَفَّقَ سَيِّدُ النُّزْلِ بِيَدَيْهِ فَأَتى الْخَدَمُ بِأَطْباقٍ جَديدَةٍ. آهْ، هَمْهَمَ فْرَنْصْواَ رابْلي وَهْوَ يَأْكُلُ، أَيُّ شَهْوَةٍ باذِخَةٍ كانَتْ في هَذاَ الْخِنْزيرِ الْبَرِّيِّ! مَرَقٌ مُزٌّ بِلُطْفٍ، مَعَ حَباتِ زَيْتونٍ أَخْضَرَ وَنَكْهَةِ الْفُلْفُلِ الَّتي تُقَوّي ريحَ الطَّريدَةِ. وَشَرائِحُ الْأَرْنَبِ الْمَحْشُوَّةَ وَالْمَقْلِيَّةَ هَذِهِ، أَجابَ بَيْنَ لُقْمَتَيْنِ صاحِبُ الْجَلالَةِ الْمُعَظَّمُ بِأَنْطاكَرِييِّلْ، أَلَا يَنْبَغي رُبَّماَ وَصْفُهاَ بِالْإِلَهِيَّةِ؟

كانَ صاحِبُ النُّزْلِ، سَعيداً، يَنْظُرُ إلَيْهِماَ يَأْكُلانِ. كانَ ذَلِكَ في شَهْرِ دُجَنْبِرَ، وَكانَتِ الشَّمْسُ تَرْسُمُ بُقَعاً بَرَّاقَةً في ظِلِّ دَعائِمِ الدَّوالي. كانَتْ عَيْناَ صاحِبُ الْجَلالَةِ الْمُعَظَّمُ بِأَنْطاكَرِييِّلْ صَغيرَتَيْنِ جِداً، وَكانَ يُطْبِقُ أَهْدابَهُ بَيْنَ الْفينَةِ وَالْأُخْرى، كَأَنَّ سِنَةً مِنَ النَّوْمِ أَخَذَتْهُ. فَضَرَبَ عَلى بَطْنِهِ بِراحَةِ يَدِهِ، طَلَبَ الْإِذْنَ بِأَدَبٍ، وَأَطْلَقَ جُشْأَةً هائِلَةً، هَديراً شَبيهاً بِالرَّعْدِ دَوىً في الرّيفِ. عِنْدَ هَديرِ الرَّعْدِ، اسْتَفاقَ رابْلي، تَنَبَّهَ إلى أَنَّ اللَّيْلَةَ كانَتْ عاصِفَةً، أَوْقَدَ الْفانوسَ مُتَخَبِّطاً وَتَناوَلَ مِنْ فَوْقِ الصُّوانِ قِطْعَةَ خُبْزٍ حافٍ كانَ يَكْتَفي بِهاَ كُلَّ لَيْلَةٍ لِوَقْفِ صِيامِهِ.

٧

حُلْمُ مايْكلأنْجُلوُ مِرِيزي، الْمَدْعوُ كارَاڤاَجْيوُ، رَساَّماً وَرَجُلاً غَضوُباً



كاَراڤاَجْيوُ، ١٥٧٣ ـ پوُرْطوُ إِرْكُلِي Porto Ercole، ١٦١٠. انْطِلَاقاً مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كاَنَتْ مَسْقِطَ رَأْسِهِ، انْطَلَقَ نَحْوَ روُماَ حَيْثُ عاَشَ فَقْراً مُدْقِعاً إِلىَ أَنْ آواَهُ فاَرِسُ أَرْپاَنْ Le Cavalier d'Arpin الَّذِي رَسَمَ لَهُ لَوَحاَتٍ تَحْتَ الطَّلَبِ. بَعْدَ أَنْ كاَنَ مُخْتَصاً فِي الطَّبِيعَةِ الْمَيْتَةِ فِي بِداَياَتِهِ، تَوَجَّهَ نَحْوَ اللَّوْحَةِ الْحِكاَئِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ ذاَتِ الْأَبْعاَدِ الْكُبْرىَ، مَعَ اشْتِغاَلٍ لَا مَثِيلَ لَهُ عَلىَ تَعاَكُسِ النوُّرِ وَالظِّلْ. لَعَلَّ لَوْحَتَهُ هِداَيَةُ الْقِدِّيسِ مَتىَ La vocation de saint Matthieu تُشَكِّلُ تُحْفَتَهُ دوُنَ مُناَزِعٍ. كاَنَ كَثِيرَ الشِّجاَرِ وَاللُّجوُءِ إِلىَ فَضِّهِ بِالسِّلَاحِ الْأَبْيَضِ. قَتَلَ رَجُلًا خِلَالَ إِحْدىَ الْمُشاَجَراَتِ وَفَرَّ إِلىَ ناَپوُلِي فَماَلْطاَ حَيْثُ سُجِنَ، لِيَتَمَكَّنَ فِيماَ بَعْدُ مِنَ الْهَرَبِ. لَكِنَّهُ كاَنَ مُتاَبَعاً مِنْ طَرَفِ سَفاَّحِينَ مَأْجوُرِينَ، بِوَجْهٍ تَمْلَؤُهُ النُّدوُبُ، سَقَطَ طَرِيحَ الْفِراَشِ بِالْإِنْهاَكِ فِي پوُرْطوُ إِرْكُلِي حَيْثُ ماَتَ مِنْ فَرْطِ الْحُمىَّ.

فِي اللَّيْلَةِ الْأُوْلى مِنْ لَيَالِي كَانُونَ الثأني/ يَنَايِرْ ١٥٩٩، بَيْنَماَ كَانَ فِي فِرَاشِ مُوْمِسٍ، رَأى مَايْكَلْأَنجلوُ مِرِيزِي، الْمَدْعوُ كَارَاڤَاجْيوُ، الرَّساَّمُ وَالرَّجُلُ الْغَضوُبُ، فِي مَنَامِهِ أَنَّ اللَّهَ يَزوُرُهُ. اللَّهُ يَزوُرُهُ بِواَسِطَةِ الْمَسيحِ، وَيُشيرُ إِلَيْهِ بِإصْبعِهِ. كاَنَ ماَيْكَلْأَنْجُلوُ فِي حاَنَةٍ، يُقامِرُ بِأَمْواَلِهِ. وَكاَنَ خِلَّانُهُ فُجاَّراً، كاَنَ بَعْضُهُمْ ثَمِلًا. أَماَّ هُوَ فَلَمْ يَكُنْ ماَيْكَلْأَنْجُلوُ مِرِيزِي، وَلَكِنْ زَبوُناً عاَدِيّاً، قاَطِعَ طَرِيقٍ. عِنْدَماَ قاَمَ اللَّهُ بِزِياَرَتِهِ، كاَنَ يُجَدِّفُ بِاسْمِ الْمَسيحِ وَيَضْحَكُ. أَنْتْ، أَشاَرَ إِصْبعُ الْمَسيحِ دوُنَ أَنْ يَنْبَسَ بِبِنْتِ شَفَةٍ. أَناَ؟ تَساَءَلَ ماَيْكَلْأَنْجلوُ مِرِيزِي بِذُهوُلٍ، لَكِنيِّ لَا أَتَمَتَّعُ بِكَراَماَتِ الْقِديِّسينَ، لَسْتُ إِلَّا آثِماً، لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَكوُنَ مِنَ الْمُصْطَفينَ.

فِي ذَلِكَ الْأَواَنِ بَقِيَ وَجْهُ الْمَسيحِ مُتَصَلِّبَ الْقَسَماَتِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ مَجاَلٍ لِلْإِفْلَاتِ. وَكاَنَتْ يَدُهُ الْمَمْدوُدَةُ لَا تَدَعُ أَيَّ أَثَرٍ لِلشَّكِّ يَحوُمُ.

طَأْطَأَ ماَيْكَلْأَنْجلوُ مِرِيزي رَأْسَهُ وَرَأى قِطَعَ النُّقوُدِ عَلىَ الطاَّوُلَةِ. اغْتَصَبْتُ، وَقَتَلْتُ، أَناَ إِنْساَنٌ يَداَهُ مُلَطَّخَتاَنِ بِالدِّماَءِ.

جاءَ نادِلُ الحانِ بِطَبَقِ فاصولْيا وَنبيذٍ. انْهَمَكَ مايْكلأنْجلو مِريزي في الأكْلِ وَالشُّرْبِ. وَلَمْ يَكُنْ أحَدٌ يَتَحرَّكُ مِنْ حَوْلِهِ، كانَ وَحْدَهُ يُحَرِّكُ يَدَيْهِ وَفَمَهُ كَشَبَحٍ. كانَ المَسيحُ بِدَوْرِهِ ساكِناً، ماداً يَدَهُ الجامِدَةَ، مُشيراً بإصْبعِهِ. انْتَصَبَ مايْكلأنْجلو مِريزي وَتَبِعَهُ. بَلَغا زُقاقاً مُريباً، فَأَخَذَ مايْكلأنْجلو مِريزي يَتَبَوَّلُ في أَحَدِ الأَرْكانِ كُلَّ ما احْتَساهُ مِنَ النَّبيذِ في ذَلِكَ المَساءِ.

إلَهي، لِمَ تَبْحَثُ عَنّي؟، ساءَلَ مايْكلأنْجلو مِريزي المَسيحَ. فَنَظَرَ إلَيْهِ ابْنُ الإنْسانِ دونَما جَوابٍ. تَنَزَّها عَلى طولِ الزُّقاقِ وَأَفْضيا إلى ساحَةٍ. كانَتْ مُقْفِرَةً.

أنا حَزينٌ، قالَ مايْكلأنْجلو مِريزي. نَظَرَ إلَيْهِ المَسيحُ دونَما جَوابٍ. جَلَسَ عَلى دَكَّةٍ حَجَرِيَّةٍ وَخَلَعَ صَنْدَلَيْهِ. دَلَّكَ رِجْلَيْهِ وَقالَ: لَقَدْ تَعِبْتُ، أَتَيْتُ راجِلاً مِنْ فَلَسْطينَ بَحْثاً عَنْكَ.

كانَ مايْكلأنْجلو مِريزي يَتَقَيَّأُ، مُسْتَنِداً إلى زاوِيَةِ جِدارٍ. لَكِنَّني، أنا، آثِمٌ، صاحَ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ لِتَبْحَثَ عَنّي.

دَنا مِنْهُ المَسيحُ وَلامَسَ إحْدى ذِراعَيْهِ. أنا مَنْ جَعَلَ مِنْكَ رَسّاماً، قالَ لَهُ، وَمِنْكَ أُريدُ رَسْماً، بَعْدَها لَكَ أَنْ تَقْتَفِيَ آثارَ قَدَرِكَ. اِغْتَسَلَ مايْكلأنْجلو مِريزي فَمَهُ وَسَأَلَ: أَيُّ رَسْمٍ؟

زِيَارَتِي لَكَ هَذاَ الْمَساَءَ فِي الْحاَنَةِ، عَداَ أَنَّكَ، أَنْتَ، سَتَكوُنُ فِي دَوْرِ مَتىً.

مُواَفِقْ، قاَلَ ماَيْكْلأَنْجُلوُ مِرِيزِي، سَأَفْعَلُ. فَتَقَلَّبَ فِي الْفِراَشِ. فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ قَبَّلَتْهُ الْمُوْمِسُ، فِي عِزِّ الشَّخِيرِ.

٨

حُلْمُ فرانْشِيسْكو گويا إلْثْينْتِسْ، رَساماً وَرائِيّاً



سَرَقُسْطَةُ، ١٧٤٦، بورْدو، ١٨٢٨. عاشَ وَماتَ فَقيراً. دَرَسَ التَّشْكيلَ بِمَدْريدْ، سافَرَ إلىَ إيطالْيا، حَيْثُ زارَ روما وَالْبُنْدُقِيَّة. في الْبَلاطِ الإسْبانِيِّ، تَمَتَّعَ بِالرِّضا كَما عانىَ مِنْ غَضَبِ الْمَلِكِ، وَجَدَ سَبيلَهُ إلىَ قُلوبِ النِّساءِ كَما اكْتَوىَ بِنيرانِ الْجَوىَ. كانَ يَتَمَتَّعُ بِرِعايَةِ دوقَةِ آلْبْ Albe، الَّتي خَلَّدَها في إحْدىَ لَوحاتِهِ. كانَتْ تَزورُهُ نَوباتُ الْجُنونِ أَحْياناً. كَلَّفَتْهُ لَوْحَةُ النَّزَواتِ Les caprices تَقْديمَهُ أَمامَ مَحاكِمِ التَّفْتيشِ. لَوحاتُهُ تُمَثِّلُ رُؤىً مُرْعِبَةً وَوَيْلاتِ الْحُروبِ وَعَذاباتِ النّاسِ.

فِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى مِنْ أَيَّارْ/ مَايوُ ١٨٢٠، بَيْنَماَ كاَنَتْ تَزوُرُهُ نَوَباَتُ جُنوُنِهِ الْمُتَقَطِّعَةُ، رَأَى فْراَنْشيِسْكوُ گوُياَ إلْثْيِنْتِس، الرَّساَّمُ وَالرائِي، مَناَماً.

رَأَى أَنَّهُ كاَنَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ رُفْقَةَ عَشيِقَتِهِ أَثْناَءَ شَباَبِهِ. كاَنَ ذَلِكَ في الريِّفِ الْمُتَقَشِّفِ لِمَنْطَقَةِ الْأَراَگوُنِ[1]، وَكاَنَتِ الشَّمْسُ تَتَوَسَّطُ كَبِدَ السَّماَءِ. كاَنَتْ عَشيِقَتُهُ جاَلِسَةً فَوْقَ أُرْجوُحَةٍ، أَماَّ هُوَ فَكاَنَ يَدْفَعُهاَ مِنْ كَتِفِهاَ. كاَنَتْ لَدَيْهاَ مِظَلَّةٌ مِنَ الدَّنْتِلَّا، وَكاَنَتْ تَضْحَكُ ضَحْكَةً مُخْتَصَرَةً وَعَصَبِيَّةً. فَسَقَطَتْ فَوْقَ الْحَقْلِ، ثُمَّ تَبِعَهاَ مُتَدَحْرِجاً فَوْقَ الْمُنْحَدَرِ. كاَناَ مَعاً يَتَدَحْرَجاَنِ جَنْباً إلَى جَنْبٍ، إلَى أَنْ بَلَغاَ جِداَراً أَصْفَرَ. اسْتَنَداَ إلَى الْجِداَرِ وَرَأَياَ جُنوُداً، يُنيِرُهُمْ مِصْباَحٌ، وَهُمْ يَرْموُنَ بَعْضَ الرِّجاَلِ بِالرَّصاَصِ. كاَنَ الْمِصْباَحُ غَيْرَ لاَئِقٍ، فيِ هَذاَ الْمَنْظَرِ الْمُشْمِسِ، لَكِنَّهُ كاَنَ يُعْطيِ الْمَشْهَدَ إناَرَةً ضاَرِبَةً لِلزُّرْقَةِ. أَطْلَقَ الْجُنْدُ الناَّرَ فَخَرَّ الرِّجاَلُ صَرْعَى، مُغَطيِّنَ الْبِرَكَ الْمُتَرَتِّبَةَ عَنْ دِماَئِهِمْ. آنَذاَكَ أَخْرَجَ

---

(١) L'Aragon.

فْرانْشيِسْكوُ كَوُياَ إلْثِينْتِسْ فُرْشاَةَ الرَّساَّمِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تُغادِرُ نِطاَقَهُ فَتَقَدَّمَ شاَهِراً لَهاَ بِتَهَدُّدٍ. اخْتَفى الْجُنوُدُ ـ كَأَنَّ ساَحِراً بَدَّدَهُمْ ـ هَلِعِينَ مِنْ هَذاَ الْكائِنِ الشَّبَحِيِّ. فَظَهَرَ مَكاَنَهُمْ عِمْلَاقٌ بَشِعٌ كاَنَ مُنْهَمِكاً في ازْدِراَدِ ساَقٍ بَشَرِيَّةٍ. كاَنَ شَعْرُهُ مُتَّسِخاً وَوَجْهُهُ شاَحِباً، وَكاَنَ خَيْطاَنِ مِنَ الدِّماَءِ يَسيِلَانِ مِنْ مُلْتَقى شَفَتَيْهِ، كاَنَتْ عَيْناَهُ مَحْجوُبَتَيْنِ، ورَغْمَ ذَلِكَ كاَنَ يَضْحَكُ.

مَنْ أَنْتَ؟، سَأَلَهُ فْراَنْشِيِسْكوُ كَوُياَ إلْثِينْتِسْ.

اِغْتَسَلَ الْعِمْلَاقُ فَمَهُ وَقاَلَ: أَناَ الْوَحْشُ الَّذي يُسَيْطِرُ عَلىَ الْبَشَرِيَّةِ، التَّاَريخُ أُميٌّ.

تَقَدَّمَ فْراَنْشِيِسْكوُ كَوُياَ إلْثِينْتِسْ خُطْوَةً وَأَشْهَرَ فُرْشاَتَهُ. اخْتَفىَ الْعِمْلَاقُ وَظَهَرَتْ عَجوُزٌ مَكاَنَهُ. كاَنَتْ شَرِسَةً بِلَا أَسْناَنٍ، بِإِهاَبٍ كَالطُّرْسِ وَعَيْنَيْنِ صَفْراَوَيْنِ.

مَنْ أَنْتِ؟ سَأَلَهاَ فْراَنْشِيِسْكوُ كَوُياَ إلْثِينْتِسْ.

أَناَ انْقِشاَعُ الْأَوْهاَمِ، وَأُسَيْطِرُ علىَ الْعاَلَمِ، لِأَنَّ كُلَّ حُلْمٍ بَشَرِيٍّ حُلْمٌ قَصيرُ الْأَمَدِ.

تَقَدَّمَ فْراَنْشِيِسْكوُ كَوُياَ إلْثِينْتِسْ خُطْوَةً وَأَشْهَرَ فُرْشاَتَهُ. اخْتَفَتِ الْعَجوُزُ وَظَهَرَ كَلْبٌ مَكاَنَهاَ. كاَنَ كَلْباً صَغيِراً مَدْفوُناً فيِ الرِّماَلِ، وَلَمْ يَكُنْ يَبْدوُ مِنْهُ سِوىَ الرَّأْسُ.

مَنْ أَنْتَ؟، سَأَلَهُ فْرانْشيسْكو گُويا إِلْثِينْتِسْ.

صَرَخَ الْكَلْبُ بِمِلْءِ صَوْتِهِ وَقالَ: أَنا حَيَوانُ خَيْبَةِ الْأَمَلِ وَأَسْخَرُ مِنْ كُرَبِكَ.

تَقَدَّمَ فْرانْشيسْكو گُويا إِلْثِينْتِسْ خُطْوَةً وَأَشْهَرَ فُرْشاتَهُ. اخْتَفى الْكَلْبُ وَظَهَرَ رَجُلٌ مَكانَهُ. كانَ عَجوزاً بَدِيناً، ذا وَجْهٍ مُتَرَهِّلٍ وَحَزِينٍ.

مَنْ أَنْتَ؟، سَأَلَهُ فْرانْشيسْكو گُويا إِلْثِينْتِسْ.

تَبَسَّمَ الرَّجُلُ بِتَعَبٍ وَقالَ: أَنا فْرانْشيسْكو گُويا إِلْثِينْتِسْ، لَنْ تَسْتَطيعَ شَيْئاً في مُواجَهَتي.

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ اسْتَفاقَ فْرانْشيسْكو گُويا إِلْثِينْتِسْ وَوَجَدَ نَفْسَهُ وَحيداً في فِراشِهِ.

٩

حُلْمُ شَامُوئِيلْ طَايْلوُرْ كُلْرِدْجْ، شَاعِراً وَمُدْمِناً لِلأَفْيُونِ



١٧٧٢ ـ ١٨٣٤. دَرَسَ فِي كمْبْرِدْجْ، لكِنّهُ لمْ يَحصَلْ شهادَةً. مِنْ لَوَاعِجِ الْحُبِّ، انْخَرَطَ فِي فَيْلَقٍ لِلْفُرْسانِ بِاسْمٍ مُزَوَّرٍ: سِيلاسْ طومْكينْ كامْبرْباكْ Silas Tomkyn Comberbacke، لَكِنَّهُ أَفْلَتَ مِنَ الْمُتابَعَةِ بِفَضْلِ أَمْوالِ أَخِيهِ. كَانَ رَجُلًا مَسْكُوناً بِمُثُلٍ طُوبَاوِيَّةٍ: كَانَ مُؤْمِناً بِوَحْدَةِ الْأَدْيانِ، أَسَّسَ مَذْهَبَ «الرَّفاهِ لِلْجَمِيعِ pantisocratie»، وَهُوَ مَشْرُوعٌ شُيُوعِيٌّ بِدائِيٌّ كانَ يَتَوَخَّى تَخْلِيصَ النَّاسِ مِنَ الْفَوارِقِ الاجْتِماعِيَّةِ. مَعَ الْأَفْيُونِ الَّذِي جَذَبَهُ نَحْوَهُ عَرَفَ الْفَرادِيسَ الاصْطِناعِيَّةَ لَكِنَّهُ، عَكْسَ صَدِيقِهِ طومَاسْ دِي كَانْسِي Thomas de Quincey، لَمْ يَتَباهَى قَطُّ بِذَلِكَ، بَلْ عاشَهُ فِي عُزْلَةٍ. كَانَ رائِياً، حالِماً مُولَعاً بِالْمِيتافِيزِيقا، تَرَكَ لَنا، مِنْ بَيْنِ مُؤَلَّفاتٍ أُخْرَى، هَذَياناً رَفِيعاً فِي شَكْلٍ غِنائِيَّةٍ: **قَوافِي الْبَحَّارِ الْقَدِيمِ** *The rime of the ancient mariner*.

ذاتَ لَيْلَةٍ مِنْ لَيالِي تِشْرِينَ الثأني/ نُوَنْبِرْ ١٨٠١، فِي بَيْتِهِ بِلُنْدُنْ، تَحْتَ سَطْوَةِ هَذَيانِ الْأَفْيُونِ رَأى شامُوئِيلْ طايْلوُرْ كُلْرِدْجْ، الشاعِرُ وَمُدْمِنُ الْأَفْيُونِ، مَناماً. رَأَى أَنَّهُ يَتَواجَدُ في سَفِينَةٍ يُحاصِرُها الْجَلِيدُ. كانَ هُوَ الْقُبْطانُ، أَماً رِجالُهُ الْمُضْطَجِعوُنَ فَوْقَ الْجِسْرِ، فَكانواْ بِشَقاءٍ يَبْحَثوُنَ عَنْ اِتِّقاءِ الْبَرْدِ مِنْ خِلالِ التَّغَطِّي بِأَسْمالٍ وَأَغْطِيَّةٍ مُمَزَّقَةٍ. كانَ الْهُزالُ بادِيّاً عَلىَ وُجوُهِهِمْ، بِزُرْقَةٍ عَمِيقَةٍ تُحِيطُ بِعُيوُنِهِمُ الَّتِي تَشِي بِالْمَرَضِ. كانَ ثَمَّةَ زُمَّجٌ مائِيٌّ ضَخْمٌ حَطَّ فَوْقَ إِحْدىَ صَوارِي الْباخِرَةِ، باسِطاً جَناحَيْهِ، مُلْقِياً عَلىَ الْجِسْرِ ظِلّاً يَتَهَدَّدُهُ. نادىَ شامُوئِيلْ طايْلوُرْ كُلْرِدْجْ الضابِطَ الْمُساعِدَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيهِ بِبُنْدُقِيَّةٍ، لَكِنَّهُ أَجابَهُ أَنَّ الْبارُودَ نَفَذَ فَأَمَدَّهُ بِقَذاَّفٍ. الْتَقَطَهُ شامُوئِيلْ طايْلوُرْ كُلْرِدْجْ وَصَوَّبَ. كانَ يَظُنُّ أَنَّهُ بِقَتْلِهِ لِزُمَّجِ الْماءِ قَدْ يَكوُنُ بِإِمْكانِهِ تَوْفِيرُ الْمَأْكَلِ لِبَحاَّرِيهِ، وَهَكَذاَ سَيُمَكِّنُهُمْ مِنْ تَفادِي وَباءِ سوُءِ التَّغْذِيَّةِ وَالْهَلاكِ. صَوَّبَ وَأَطْلَقَ السَّهْمَ. هَوىَ زُمَّجُ الْماءِ، مَخْروُمَ الْعُنُقِ بِالسَّهْمِ، عَلىَ الْجِسْرِ فَلَطَّخَ دَمُهُ الْجَلِيدَ مِنْ حَوْلِهِ. آنذاكَ تَوَلَّدَتْ عَنِ الدَّمِ الْمُتَجَلِّطِ فَوْقَ

الْجَلِيدِ أَفْعى بَحْرِيَّةٌ رَفَعَتْ عَلى عَجَلٍ رَأْسَهاَ وَاسْتَنَدَتْ لِلسوُّرِ لِتُطْلِقَ صَفِيراً بِلِسانِهاَ الْمُتَفَرِّعِ. أَمْسَكَ شاَموُئِيلْ طاَيْلوُرْ كُلْرِدْجْ بِحُسامِ الْقُبْطاَنِ الَّذي كاَنَ يَتَمَنْطَقُ بِهِ عَلىَ خاَصِرَتِهِ، فَحَزَّ رَأْسَهاَ لِلتَّوِّ. عَنْ هَذِهِ الرَّأْسِ الْمَقْطوُعَةِ تَوَلَّدَتْ إِذاَّكَ امْرَأَةٌ نَحِيلَةٌ، مُتَّشِحَةٌ بِالسَّواَدِ، شاَحِبَةُ الْوَجْهِ، بِعَيْنَيْ مَمْسوُسَةٍ. كاَنَتْ بَيْنَ يَدَي الْمَرْأَةِ أَحْجاَرُ نَرْدٍ لِلَّعِبِ، جَلَسَتْ عَلىَ مُؤَخَّرِ السَّفِينَةِ وَناَدَتِ الْقُبْطاَنَ. عَلَيْناَ الْآنَ أَنْ نَلْعَبَ النَّرْدَ، قاَلَتْ، إِنْ كَسِبْتَ سَتَنْعَتِقُ باَخِرَتُك، إِنْ كَسِبْتُ سَآخُذُ بَحاَّرِيكَ مَعِي. هَرَعَ الْقُبْطاَنُ الْمُساَعِدُ إِلىَ شاَموُئِيلْ طاَيْلوُرْ كُلْرِدْجْ وَ ـ مُمْسِكاً بِهِ مِنَ الذِّراَعِ ـ رَجاَهُ أَنْ لَا يَسْمَعَ تِلْكَ الْمَرْأَةَ الْمَنْحوُسَةَ، لِأَنَّ ذَلِكَ سَيَقوُدُهُمْ جَمِيعاً لِلْخراَبِ، لَكِنَّهُ تَقَدَّمَ بِبَسالَةٍ نَحْوَ الْمَرْأَةِ، انْحَنى إِجْلاَلًا لَهاَ، وَأَعْلَنَ اسْتِعْداَدَهُ لِلَّعِبِ. مَدَّتْ لَهُ الْمَرْأَةُ جاَمَ النَّرْدِ وَالْأَحْجاَرَ. أَمْسَكَ بِهِ شاَموُئِيلْ طاَيْلوُرْ كُلْرِدْجْ وَشَدَّهُ عَلىَ صَدْرِهِ. ثُمَّ خَضْخَضَهُ بِشِدَّةٍ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِالْأَحْجاَرِ عَلىَ الْأَرْضِيَّةِ. صاَحَ الْبَحاَّرَةُ پ بْراَڤوُ: إِحْدىَ عَشَرَ نُقْطَةً، كاَنَتْ تِلْكَ هِيَ النَّتِيجَةُ الَّتي حَقَّقَهاَ قُبْطاَنُهُمْ. اقْتَلَعَتِ الْمَرْأَةُ الْمَنْحوُسَةُ بَعَضَ خُصْلاَتِهاَ حَنَقاً وَبَكَتْ، ثُمَّ ضَحِكَتْ بِمَكْرٍ، فَعاَوَدَتِ الْبُكاَءَ وَهِيَ تَنْتَحِبُ كَكَلْبٍ يَعْوِي. أَخَذَتِ الْأَحْجاَرَ أَخِيراً وَبِحَرَكَةٍ فَضْفاَضَةٍ، كَأَنَّماَ أَراَدَ ذِراَعُهاَ كَنْسَ الْجِسْرِ، رَمَتْ بِهاَ. تَدَحْرَجَتِ الْأَحْجاَرُ عَلىَ الْأَرْضِيَّةِ وَتَوَقَّفَتْ مُظْهِرَةً سِتَّ نِقَطٍ مِنْ

هَذاَ الْجاَنِبِ وَسِتاًّ مِنْ ذاَكَ. فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ عَصَفَتْ بِهِمْ رِيحٌ ثَلْجِيَّةٌ، انْقَضَّتْ عَلَيْهِمْ بِهَباَّتٍ جاَمِدَةٍ. بِأَثَرِ الرِّيحِ، اخْتَفَى الْبَحاَّرَةُ، الْمَرْأَةُ الْمَنْحوُسَةُ وَالسَّفِينَةُ، كاَنَتْ طَبَقَةٌ مِنَ الدُّخاَنِ الرَّماَدِيِّ تَمْتَدُّ فَوْقَ كُلِّ هَذاَ، فَفَتَحَ شاَموُئِيلْ طاَيْلوُرْ كُلْرِدْجْ عَيْنَيْهِ لِيَرَى الْفَجْرَ الْمُضَبَّبَ الَّذي كاَنَ يَتَراَءَى مِنْ ناَفِذَتِهِ.

١٠

حُلْمُ جْياَكوُموُ لْيوُپاَّرْدِي،
شاَعِراً وَمُتَقَلِّبَ أَطْواَرٍ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْقَمَرِ



رِكَناَتي Recanati، ١٧٩٨ ـ ناَپوُلِي، ١٨٣٧. وُلِدَ فِي أُسْرَةٍ نَبِيلَةٍ، تَلَقَّنَ الْعُلوُمَ، وَالْفَلْسَفَةَ وَاللُّغاَتِ الْكْلاَسِيكِيَّةَ بِنَهَمٍ فِي مَكْتَبَةِ أَبِيهِ، لَكِنَّ نُمُوَّهُ الْجِسْماَنِيَّ كاَنَ يَعْرِفُ بَعْضَ الْقُصوُرِ. كاَنَ يَتَمَلَّكُهُ الْهَلَعُ مِنْ ذِكْرِ السِّجْنِ الإِقْلِيمِيِّ حَيْثُ نَشَأَ. احْتَقَرَ الاسْتِصْغاَرَ وَالتَّزَلُّفَ، أَحَبَّ الْفَنَّ، وَالْعُلوُمَ، وَكُلَّ فِكْرَةٍ مُسْتَنِيرَةٍ، كَماَ كاَنَ يُؤْثِرُ الْقِيَمَ الْجَدِيدَةَ الَّتِي أَتَتْ بِهاَ الْمَدِينَةُ. مِنْ أَعْلاَمِ فِقْهِ اللُّغَةِ فِي إِيْطاَلْياَ. أَنْشَدَ الْحُبَّ، انْسِياَبَ الزَّمَنِ، آلاَمَ النَّاسِ، اللاَّنِهاَئِيَّ وَالْقَمَرَ.

ذاتَ لَيْلَةٍ مِنْ أَوائِلِ دُجَنْبِرَ/ كانُونَ الْأَوَّلِ ١٨٧٢، في مَدينَةِ بِيزا[١] الْجَميلَةِ، بِشارِعِ فادْجِيوُلا[٢]، نائِماً وَمُشْتَمِلاً بِغِطاءَيْنِ اتِّقاءً لِلْبَرْدِ الَّذي كانَ يَعُمُّ الْمَدينَةَ، رَأَى جْياكُومُو لْيُوپارْدي، الشّاعِرُ وَمُتَقَلِّبُ الْأَطْوارِ تَحْتَ تَأْثيرِ الْقَمَرِ، مَناماً. رَأَى أَنَّهُ كانَ مُتَواجِداً في خَلاءٍ، وَأَنَّهُ كانَ راعِياً. لَكِنْ، بَدَلَ أَنْ يَكُونَ لَهُ قَطيعٌ يَتْبَعُهُ، كانَ بِكُلِّ سَعَةٍ مُمْتَطِياً عَرَبَةً تَجُرُّها أَرْبَعُ شِياهٍ ذاتِ بَياضٍ ناصِعٍ جِداً، كانَتْ كُلَّ قَطيعِهِ.

كانَ الْخَلاءُ وَالتِّلالُ الَّتي تَحُفُّهُ ذاتَ رِمالٍ فِضِّيَّةٍ دَقيقَةٍ بِبَريقِ الْتِماعاتِ الْحُباحِبِ. كانَ الْوَقْتُ لَيْلاً، لَكِنَّ الطَّقْسَ لَمْ يَكُنْ بارِداً، عَلَى الْعَكْسِ، كانَتْ تَبْدو لَيْلَةً جَميلَةً مِنْ لَيالي نِهايَةِ الرَّبيعِ، بِحَيْثُ انْتَزَعَ لْيُوپارْدي سُتْرَتَهُ الَّتي كانَ يَتَزَيّى بِها وَوَضَعَها عَلَى مَسْنَدِ الْعَرَبَةِ.

إِلى أَيْنَ تَقُودينَني، يا شُوَيْهاتي الْعَزيزَةُ؟ كَذا ساءَلَها لْيُوپارْدي.

---

(١) Pise.

(٢) Via della Faggiola.

ذاَهِبَاتٌ بِكَ فِي نُزْهَةٍ، أَجابَتِ الشِّياهُ الْأَرْبَعُ، نَحْنُ شُوَيْهاتٌ مُتَسَكِّعاَتٌ.

لَكِنْ ماَ هَذاَ الْمَكاَنُ؟ تَساءَلَ لْيُوپاَّرْدِي، أَيْنَ نَحْنُ؟

سَتَكْتَشِفُ ذَلِكَ بَعْدَ لَحِظاَتٍ، قاَلَتِ الشِّياهُ، عِنْدَماَ تَلْتَقِي الشَّخْصَ الَّذي يَنْتَظِرُكَ.

مَنْ هَذاَ الشَّخْصُ؟ اسْتَفْهَمَ لْيُوپاَّرْدِي، أَوَدُّ بِإِلْحاَحٍ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ.

هاَ! هاَ! قَهْقَهتِ الشِّياهُ وَتَباَدَلَتْ بَعْضَ النَّظَراَتِ، لَا نَسْتَطِيعُ الْبَوْحَ لَكَ بِشَيْءٍ، يَنْبَغِي أَنْ تَكوُنَ مُفاَجَأَةً.

كاَنَ لْيُوپاَّرْدِي يُحِسُّ بِالْجوُعِ، وَدَّ لَوْ يَتَناَوَلُ قِطْعَةَ حَلْوىَ؛ طُرْطَةً مُسْتَحْضَرَةً بِنواَةِ الصَّنَوْبَرِيَّةِ، هُوَ ذاَ بِدِقَّةٍ ماَ كاَنَ يَشْتَهِي.

أَرْغَبُ فِي قِطْعَةِ حَلْوىَ، قاَلَ، أَماَ مِنْ مَكَانٍ فِي هَذاَ الْخَلَاءِ لِنَشْتَرِيَ قِطْعَةَ حَلْوىَ؟

تَواًّ وَراَءَ هَذِهِ التَّلَّةِ، أَجابَتِ الشِّياهُ، رُوَيْدَكَ.

بَلَغواُ وَسْطَ الْخَلَاءِ وَعاَجواُ حَوْلَ التَّلَّةِ، حَيْثُ كاَنَ يَتواَجَدُ عِنْدَ سَفْحِهاَ مَتْجَرٌ. كاَنَ عِباَرَةً عَنْ مَحَلٍّ جَمِيلٍ لِصُنْعِ الْحَلوِياَّتِ مِنَ الْبِلَّوْرِ، كاَنَ يُشِعُّ بِأَنْواَرٍ فِضِّيَّةٍ. نَظَرَ لْيُوپاَّرْدِي لِلْواَجِهَةِ، حاَئِراً فِي ماَ سَيَخْتاَرُهُ. فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ، طُرْطاَتٌ مِنْ كُلِّ الْأَصْناَفِ وَالْأَحْجاَمِ: طُرْطاَتٌ خَضْراَءُ بِالْفُسْتُقِ، طُرْطاَتٌ قِرْمِزِيَّةٌ بِتوُتِ

الْعُلَّيْقِ، طُرْطَاتٌ صَفراءُ بِاللَّيْموُنِ، طُرْطَاتٌ وَرْدِيَّةٌ بِالْفراوْلَةِ. ثُمَّ كانَتْ ثَمَّةَ حَلْوى مِنْ لَوْزٍ وَسُكَّرٍ، ذاتُ أَشْكالٍ غَرِيبَةٍ وَمُشَهِّيَةٍ: مُسْتَحْضَرَةٌ بِالتُّفاحِ وَالْبُرْتُقالِ، أَوْ بِهَيْأَةِ الْحَيَوانَاتِ. وَفِي الصَّفُ الْأَخيرِ كانَتْ ثَمَّةَ قِشْدَةٌ مِنْ نَبيذٍ وَصَفارِ بَيْضٍ وَسُكَّرٍ تَعْلوُها لَوْزَةٌ. نادَى لْيوُپاَرْدِي صاحِبَ الْمَحَلِّ وَاشْتَرى مِنْهُ ثَلاثَ قِطَعِ حَلْوى: طُرْطَةٌ بِالْفراوْلَةِ، حَلْوى مِنْ لَوْزٍ وَسُكَّرٍ وَقِشْدَةٌ. كانَ صاحِبُ الْمَحَلِّ قَصيرَ الْقامَةِ، مِنْ فِضَّةٍ، ذا شَعْرٍ أَبْيَضَ ناصِعٍ وَعَيْنَيْنِ زَرْقاوَيْنِ، سَلَّمَهُ قِطَعَ الْحَلْوى فَعُلْبَةَ شوُكوُلاطَةٍ كَهَدِيَّةٍ. صَعَدَ لْيوُپاَرْدِي الْعَرَبَةَ، وَبَيْنَما واصَلَتِ الشِّياهُ طَريقَها مِنْ جَديدٍ، بَدَأَ هُوَ يَتَلَذَّذُ بِما اشْتَراهُ مِنْ أَشْياءَ شَهِيَّةٍ. صارَتِ الطَّريقُ مُنْحَدَراً، وَالْآنَ بَدَأَ تَسَلُّقُ التَّلَّةِ. وَيا لَلْغَرابَةِ! كانَتْ هَذِهِ الْأَرْضُ بِدَوْرِها تَلْمَعُ، هَفْهافَةً وَمُشِعَّةً بِأَلَقٍ مِنَ الْفِضَّةِ. تَوَقَّفَتِ الشِّياهُ أَمامَ بَيْتٍ صَغيرٍ كانَ يَتَوَهَّجُ لَيْلًا. بِإِدْراكِ لْيوُپاَرْدِي أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ، نَزَلَ أَرْضاً، تَناوَلَ عُلْبَةَ الشوُكوُلاطَةِ وَوَلَجَ الْمَنْزِلَ. بِالدّاخِلِ، كانَتْ فَتاةٌ تَقْتَعِدُ كُرْسِيّاً وَتُطَرِّزُ بِالطّارَةِ.

تَقَدَّمْ، كُنْتُ بِانْتِظارِكَ، قالَتِ الْفَتاةُ. اسْتَدارَتْ، تَبَسَّمَتْ، فَتَمَيَّزَها لْيوُپاَرْدِي. كانَتْ سيلْڤيا. عَدا أَنَّها الْآنَ صارَتْ بِكامِلِها مِنْ فِضَّةٍ، كانَتْ لَها نَفْسُ الْمَلامِحِ كَما فيما مَضى، لَكِنَّها كانَتْ مِنْ فِضَّةٍ.

سِيلْفِياَ، سِيلْفِياَ الْحَبِيبَةُ، صاَحَ لْيُوپاَّرْدِي وَهْوَ يَأْخُذُ بِيدَيْهاَ، كَمْ هُوَ رائِعٌ أَنْ أَراكِ ثانِيَةً، لَكِنْ لِمَ أَنْتِ مِنْ فِضَّةٍ؟

لِأَنِّي قَمَرِيَّةٌ، أَجابَتْ سِيلْفِياَ، عِنْدَماَ نَمُوتُ نَذْهَبُ إِلىَ الْقَمَرِ وَنَصِيرُ هَكَذاَ.

لَكِنْ لِمَ أَناَ هُناَ بِدَوْرِي، تَساَءَلَ لْيُوپاَّرْدِي، أَأَكُونُ قَدْ مُتُّ؟

مَنْ يَتَواَجَدُ هُناَ لَيْسَ أَنْتَ، قاَلَتْ سِيلْفِياَ، هِيَ صُورَتُك فَقَطْ، أَنْتَ ماَ زِلْتَ علىَ الْأَرْضِ.

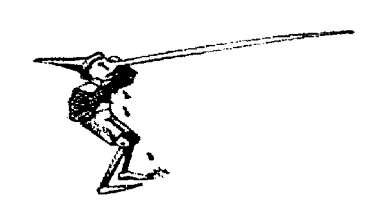
وَانْطِلَاقاً مِنْ هُناَ، بِوُسْعِناَ رُؤْيَةُ الْأَرْضِ؟ سَأَلَ لْيُوپاَّرْدِي.

قاَدَتْهُ سِيلْفِياَ نَحْوَ النافِذَةِ حَيْثُ كاَنَ يَتَواَجَدُ مِنْظاَرٌ. قَرَّبَ لْيُوپاَّرْدِي عَيْنَهُ مِنَ الْعَدَسَةِ وَرَأَى لِتَوِّهِ قَصْراً. تَمَيَّزَهُ: كاَنَ قَصْرَهُ. كاَنَتْ إِحْدَى نَواَفِذِهِ مُضاَءَةً بَعْدُ، نَظَرَ لْيُوپاَّرْدِي داَخِلًا فَلَمَحَ أَباَهُ بِلِباَسِ النَّوْمِ وَمِبْوَلَةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، مُتَّجِهاً صَوْبَ سَرِيرِهِ. أَحَسَّ بِخَضَّةٍ فِي فُؤاَدِهِ فَحَوَّلَ اتِّجاَهَ الْمِنْظاَرِ. رَأَى بُرْجاً ماَئِلًا فَوْقَ مَرجٍ شاَسِعٍ، وَعَلىَ مَقْرُبَةٍ مِنْهُ شاَرِعٌ مُتَعَرِّجٌ وَعِماَرَةٌ ذاَتُ أَضْواَءٍ باَهِتَةٍ. بَذَلَ جُهْداً كَبِيراً لِيَرىَ ماَ بِالداَّخِلِ مِنْ خَلْفِ النافِذَةِ فَلَمَحَ غُرْفَةً بَسِيطَةً، مَعَ صُواَنٍ وَطاَوِلَةٍ كاَنَ عَلَيْهاَ دَفْتَرٌ وَبِجاَنِبِهِ شَمْعَةٌ تَحْتَرِقُ. فِي الْفِراَشِ، رَأَى نَفْسَهُ، ناَئِماً وَمُلْتَحِفاً بِغِطاَءَيْنِ.

مَيِّتٌ أَناَ؟ سَأَلَ لْيُوپاَّرْدِي سِيلْفِياَ. لاَ، قاَلَتْ، أَنْتَ فَقَطْ مُسْتَغْرِقٌ فِي نَوْمِكَ، وَتَحْلُمُ بِالْقَمَرِ.

١١

حُلْمُ كارْلوُ كوُلوُّدي،
كاتِباً وَرَقيباً عَلى الْمَسْرَحِ



اسْمُهُ الْحَقيقِيُّ كارْلوُ لوُرِنْزيني Carlo Lorenzini. وُلِدَ بِكوُلوُّدي في طوُسْكانْيا، في ١٨٢٦، وَتُوُفِّيَ بِفلوُرَنْسا في ١٨٩٠. كانَ مُدافِعاً شَرِساً عَنْ أَفْكارِ مَزّيني Mazzini [وَطَنِيٌّ إيطالِيٌّ. سانَدَ الْكارْبوُناري (جَمْعِيَّةٌ سِرِّيَّةٌ لِبرالِيَّةٌ كانَتْ غايَتُها طَرْدُ الْمُسْتَعْمِرينَ لإيطالْيا مِنْ فَرَنْسِيّينَ وَنَمْساوِيّينَ)، لَيُسْجَنَ ثُمَّ لِيُنْفى نَحْوَ فَرَنْسا حَيْثُ أَسَّسَ مُنَظَّمَةَ **إيطالْيا الْفَتاة** الَّتي كانَ بَرْنامَجُها تَحْريرُ وَتَوْحيدُ إيطالْيا عَلى أُسُسٍ جُمْهوُرِيَّةٍ]، شارَكَ في الْحَمَلاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ **لِلنَّهْضَةِ** [Risorgimento: الْحِقْبَةُ الإيطالِيَّةُ بَيْنَ ١٨١٥ و١٨٧٠، وَالَّتي عَرَفَتْ مَداً سِياسِياً، عَسْكَرِياً وَأَدَبِياً يَتَوَخّىٰ تَوْحيدَ إيطالْيا]. عاشِقٌ لِلْحُرِّيَّةِ وَالاسْتِقْلالِ، وَلَوْ أَنَّهُ اشْتَغَلَ رَقيباً عَلى الْمَسْرَحِ لَدى الْحُكوُمَةِ الطوُسْكانِيَّةِ بِدايَةً مِنْ ١٨٥٩. كانَ رَجُلاً مُخَشْوِشِناً، مُقْبِلاً عَلى الأَكْلِ وَالشَّرابِ. عانى كَثيراً مِنَ الْبَرْدِ الَّذي كانَ يُهْلِكُ مَفاصِلَهُ وَمِنْ نَوْباتِ الْجُنوُنِ وَالأَرَقِ. خَلَّدَ في إحْدى آثارِهِ دُمْيَةً خَشَبِيَّةً.

فِي لَيْلَةِ الْخامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ دُجَنْبِرَ/ كَانُونَ الْأَوَّلِ ١٨٨٢، فِي بَيْتِهِ بِفْلُورَنْسا، رَأى كَارْلُو كُولُودِي، الْكاتِبُ وَالرَّقِيبُ عَلى الْمَسْرَحِ، مَناماً. رَأى أَنَّهُ كانَ مُتَواجِداً عَلى قارِبٍ صَغِيرٍ مِنْ وَرَقٍ في خِضَمِّ بَحْرٍ عاصِفٍ. لَكِنَّ الْقارِبَ الْوَرَقِيَّ الصَّغِيرَ كانَ يُقاوِمُ، كانَ قارِباً عَنِيداً، بِعَيْنَيْنِ إِنْسِيَّتَيْنِ، وَبِأَلْوانِ عَلَمِ إِيْطالْيا الَّتِي كانَ كُولُودِي يُحِبُّها حُبّاً جَمّاً. كانَ صَوْتٌ مِنْ بَعِيدٍ، مِنْ مَكانٍ يُشْرِفُ عَلى السّاحِلِ، يَصِيحُ: كارْلِينُو، كارْلِينُو، عُدْ لِلضِّفَّةِ! كانَ ذاكَ صَوْتَ الزَّوْجَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لَهُ قَطُّ، صَوْتٌ أُنْثَوِيٌّ رَقِيقٌ كانَ يُنادِيهِ كَحُورِيَّةٍ نائِحَةٍ.

آهْ! كَمْ كانَ يَوَدُّ لَوْ يَسْتَدِيرُ نَحْوَها! لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِالْمُسْتَطاعِ، كانَتِ الْأَمْواجُ قَوِيَّةً جِداً وَكانَ الْقارِبُ الصَّغِيرُ آخِذاً طَرِيقَهُ بِإِرادَةِ الْبَحْرِ.

وَفَجْأَةً رَأى الْوَحْشَ. كانَ قِرْشاً ضَخْماً فاغِراً فاهُ يَتَرَصَّدُهُ، يَرْمُقُهُ، يَنْتَظِرُهُ.

كانَ كُولُودِي يُحاوِلُ التَّحَكُّمَ في دَفَّةِ الْقارِبِ، لَكِنَّهُ كانَ بِدَوْرِهِ

وَرَقِيّاً، مُبْتَلّاً وَغَيْرَ صالِحٍ لِلاسْتِعْمالِ مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ. وَما كانَ مِنْهُ إِلّا أَنْ قَرَّرَ السَّيْرَ قُدُماً صَوْبَ فاهِ الْوَحْشِ، وَمِنْ فَرْطِ الْخَوْفِ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلى عَيْنَيْهِ وَصاحَ: ڤيڤا ليطالْيا![1].

كَمْ كانَ الظَّلامُ مُخيِّماً، في جَوْفِ الْوَحْشِ! بَدَأَ كولودي يَمْشي مُتَخَبِّطاً، عَلى غَيْرِ هُدىً، تَعَثَّرَ بِشَيْءٍ لَمْ يُدْرِكْ طَبيعَتَهُ وَبِتَحَسُّسِهِ أَدْرَكَ أَنَّهُ جُمْجُمَةٌ. ثُمَّ اصْطَدَمَ بِمَوائِدَ فَأَدْرَكَ أَنَّ قارِباً آخَرَ غَرِقَ مِنْ قَبْلِهِ في فاهِ الْوَحْشِ. هُوَ الآنَ يَتَنَقَّلُ خِلْوَ الْبالِ، بِفَضْلِ الضَّوْءِ الْباهِتِ الْمُتَسَرِّبِ مِنَ الْفاهِ الْفاغِرِ لِلْقِرْشِ. مُتَحَسِّساً الأَشْياءَ في تَقَدُّمِهِ، اصْطَدَمَتْ رُكْبَتُهُ بِصُنْدوقٍ خَشَبِيٍّ. انْحَنى لِيَمَسَّهُ بِيَدَيْهِ، فَتَنَبَّهَ لِكَوْنِهِ مَليئاً بِالشُّموعِ. لِحُسْنِ حَظِّهِ، ما زالَتْ لَدَيْهِ وَلّاعَتُهُ الَّتي قَدَحَ بِها شَراراتٍ. أَوْقَدَ شَمْعَتَيْنِ، وَلَمّا أَخَذَهُما بِكِلْتا يَدَيْهِ بَدَأَ يَنْظُرُ مِنْ حَوْلِهِ. كانَ يَتَواجَدُ فَوْقَ جِسْرِ سَفينَةٍ غَرِقَتْ في جَوْفِ الْوَحْشِ، كانَ مُؤَخَّرُ السَّفينَةِ مُكْتَظّاً بِالْهَياكِلِ الْعَظْمِيَّةِ مَعَ عَلَمٍ أَسْوَدَ، كانَ يَخْفِقُ فَوْقَ الصّارِيَةِ الْكُبْرى، وَقَدْ رُسِمَتْ عَلَيْهِ هامَةُ رَجُلٍ مَيِّتٍ وَعَظْمَتا ساقٍ مُتَقاطِعَتانِ. واصَلَ كولودي اسْتِكْشافَهُ وَنَزَلَ دَرَجاً صَغيراً. وَجَدَ هُرْيَ السَّفينَةِ تَوّاً، وَكانَ مَليئاً بِشَرابِ الرّومْ. وَبِواسِعِ الرِّضا فَتَحَ قِنّينَةً وَعَبَّ بِتَلَذُّذٍ. هُوَ الآنَ

(١) Viva l'Italia: تَحْيا إِيْطالْيا!

يُحِسُّ بِنفْسِهِ أَحْسَنَ حالًا. مُطْمَئِناً بِماَ فيهِ الْكِفاَيَةُ، نَهضَ، وَمُهْتَدِياً بِنوُرِ الشَّمْعَتَيْنِ، خَرَجَ مِنَ السَّفينَةِ. كاَنَ جَوْفُ الْوَحْشِ لَزِجاً، مُزْلِقاً، مُتْرَعاً بِصِغارِ الْأَسْماَكِ الْمَيِّتَةِ وَالسَّراَطِينِ. تَقَدَّمَ كوُلوُّدي وَهْوَ يَتَخَبَّطُ في الْمِياَهِ الْخَفيضَةِ. رَأى ضَوْءاً خاَفِتاً في الْبَعيدِ، أَلَقاً مُحْتَشِماً بَداَ لَهُ كَنِداَءٍ. تَوَجَّهَ صَوْبَهُ. هَياَكِلُ عَظْمِيَّةٌ، مَراَكِبُ غاَرِقَةٌ، قَواَرِبُ مَخروُمَةٌ وَأَسْماَكٌ ضَخْمَةٌ مَيِّتَةٌ كاَنَتْ تَمُرُّ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ. أَخَذَ الْأَلَقُ يَبْدوُ داَنِياً، فَلَمَحَ كوُلوُّدي ماَئِدَةً. كاَنَ شَخْصاَنِ يَتَحَلَّقاَنِ حَوْلَهاَ، امْرَأَةٌ وَطِفْلٌ. تَقَدَّمَ كوُلوُّدي بِحَياَءٍ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الْمَرْأَةَ كاَنَتْ ذاَتَ شَعْرٍ فَيْروُزِيٍّ وَأَنَّ الطِّفْلَ كاَنَ يَعْتَمِرُ قُبَّعَةً صُنِعَتْ مِنْ فُتاَتِ الْخُبْزِ. هَرَعَ نَحْوَهُماَ وَاحْتَضَنَهُماَ. احْتَضَناَهُ بِدَوْرِهِ، ضَحِكوُا وَتَباَوَسوُا عَلَى الْوَجْناَتِ فَداَعَبوُا بَعْضَهُمْ أَلْفَ مُداَعَبَةٍ. وَلَمْ يَنْبِسوُا بَعْدُ بِبِنْتِ شَفَةٍ.

فَجْأَةً، تَغَيَّرَ الْمَشْهَدُ. لا يَتَواَجَدوُنَ الْآنَ في جَوْفِ الْوَحْشِ، وَلَكِنْ تَحْتَ دَعاَئِمِ داَلِيَةٍ. كاَنَ الْجَوُّ مِنْ حَوْلِهِمْ صَيْفاً. كاَنوُا مُتَحَلِّقينَ حَوْلَ ماَئِدَةٍ، في بَيْتٍ بِتِلاَلِ پِيِّتْشِياً[1]، كاَنَتِ الصَّراَصيرُ تَصِرُّ، كاَنَ كُلُّ شَيْءٍ جاَمِداً في الْهاَجِرَةِ، وكاَنوُا يَشْرَبوُنَ النَّبيذَ الْأَبْيَضَ وَيَأْكُلوُنَ الْبِطيِّخَ. جاَثِيَيْنِ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهُمْ، تَحْتَ

(١) Pescia.

الدَّوالِي، كانَ قِطٌّ وَثَعْلَبٌ يَنْظُرانِ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الرِّضا. فَقالَ لَهُما كُولُودِي، بِنَغْمَةٍ لَطِيفَةٍ: تَفَضَّلا رَجاءً، شارِكانا الْمائِدَةَ!

١٢

حُلْمُ روُبِرْتْ لْويِس سْتِفِنْسُنْ، كاَتِباً وَرَحاَّلَةً



وُلِدَ في إِدِنْبُورْگ في ١٨٥٠. كانَتْ صِحَّتُهُ مُعْتَلَّةً عَلىَ الدَّوامِ، عَرَفَ في شَبابِهِ فَتَراَتٍ مَرَضِيَّةً طَوِيلَةً وَفَتَراَتِ نَقاَهَةٍ لاَ تَنْتَهِي. كاَنَ مَسْلوُلاً وَإِثْرَ هَذاَ الْمَرَضِ ماَتَ. تَجَوَّلَ كَثِيراً في أُوْرُپاً، أَمْرِيكاَ وَالْمُحيِطِ الْهادِئِ. **جَزِيرَةُ الْكَنْزِ** ***L'île au trésor*** أَشْهَرُ مُؤَلَّفاَتِهِ. عِنْدَماَ أَحَسَّ بِقُرْبِ أَجَلِهِ، اخْتاَرَ أَنْ يَكوُنَ ذَلِكَ في جَزِيرَةٍ ناَئِيَّةٍ، أُپولُو Opolu، في أَرْخِبِيلِ صاَمْواَ Samoa. دُفِنَ في قُنَّةِ الْجَبَلِ. كاَنَ يَبْلُغُ مِنَ الْعُمْرِ أَرْبَعاً وَأَرْبَعِينَ سَنَةً.

ذاتَ لَيْلَةٍ مِنْ لَيالِي يونْيو/ حُزَيْرانْ ١٨٨٥، فِي سِنِّ الْخامِسَةِ عَشْرَ، وَبَيْنَما كانَ مُتَواجِداً بِغُرْفَةٍ مِنْ غُرَفِ مُسْتَشْفى أُدَنْبِرَه[١]، رَأى روبِرْتْ لُويسْ سْتِفِنْسُنْ، الْكاتِبُ وَالرَّحالَةُ مُسْتَقْبَلِيّاً، مَناماً. رَأى أَنَّهُ صارَ رَجُلاً ناضِجاً وَأَنَّهُ عَلى مَتْنِ سَفِينَةٍ شِراعِيَّةٍ. كانَتْ أَشْرِعَةُ السَّفِينَةِ مُنْتَفِخَةً بِالرِّياحِ، تَمْخُرُ عُبابَ الْهَواءِ. أَمّا هُوَ، فَكانَ يُدِيرُ دَفَّتَها كَما تُقادُ الْمَناطِيدُ. مَرَّتِ السَّفِينَةُ فَوْقَ سَماءِ أُدَنْبِرَهْ، ثُمَّ عَبَرَتْ جِبالَ فَرَنْسا، ابْتَعَدَتْ عَنْ أُورُبّا وَبَدَأَتْ تَحُومُ فَوْقَ مُحِيطٍ لازَوَرْدِيٍّ. كانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ اقْتَنى هَذِهِ السَّفِينَةَ لِأَنَّ رِئَتَيْهِ لَمْ تَكُونا لِتَسْتَطِيعا التَّنَفُّسَ، وَلِأَنَّهُ كانَ بِحاجَةٍ مُلِحَّةٍ لِاسْتِنْشاقِ الْهَواءِ. وَها هُوَ الْآنَ يَتَنَفَّسُ بِأَحْسَنِ حالٍ، كانَتِ الرِّياحُ تَمْلأُ رِئَتَيْهِ بِالْهَواءِ النَّقِيِّ، أَمّا سُعالُهُ فَقَدْ تَوَقَّفَ.

حَطَّتِ السَّفِينَةُ فَوْقَ الْماءِ وَواصَلَتْ طَرِيقَها بِسُرْعَةٍ. كانَ روبِرْتْ لُويسْ سْتِفِنْسُنْ قَدْ أَرْخى كُلَّ الْأَشْرِعَةِ وَتَرَكَ نَفْسَهُ مُنْقاداً لِلرِّياحِ. فِي لَحْظَةٍ ما، لَمَحَ جَزِيرَةً فِي الْأُفُقِ وَبِضْعَ زَوارِقَ يَقُودُها

(١) Edimbourg.

رِجَالٌ سُمْرٌ أَتواْ لِلِقَائِهِ. تَبدىً لِروُبرْتْ لُوِيسْ سْتِفِنْسُنْ أَنَّ الْقَوارِبَ اصْطَفَّتْ بِجانِبِهِ وَأَنَّهاَ تَدُلُّهُ عَلىَ الطَّرِيقِ الَّتي يَنْبَغي اتِّباعُها؛ كَذلِكَ كاَنَ، وَكاَنَ الْأَهاَلِي يُنْشِدوُنَ أَغاَنٍ فَرِحَةً وَيُلْقوُنَ بِأَكاَلِيلَ مِنَ الزُّهوُرِ الْبَيْضاَءِ فَوْقَ جُسَيْرِ السَّفِينَةِ.

عِنْدَماَ صاَرَتْ تَفْصِلُهُ عَنِ الْجَزِيرَةِ حَواَلَيْ مِئَةُ مِتْرٍ، أَلْقىَ روُبِرْتْ لُوِيسْ سْتِفِنْسُنْ بِالْمِرْساَةِ وَنَزَلَ، بِواَسِطَةِ سُلَّمٍ صَغِيرٍ جُدِلَ مِنَ الْحِباَلِ، نَحْوَ الزَّوْرَقِ الرَّئِيسِ الَّذي كاَنَ بِانْتِظاَرِهِ تَحْتَ قِشْرِ السَّفِينَةِ. كاَنَ زَوْرَقاً باَذِخاً، مُجَهَّزاً بِطَوْطَمٍ ضَخْمٍ عَلىَ مُقَدِّمَتِهِ. عاَنَقَهُ الْأَهاَلِي، هَوَّوْهُ بِسَعْفِ النَّخِيلِ، ثُمَّ قَدَّموُاْ لَهُ فَواَكِهَ شَهِيَّةً.

كاَنَ النِّسْوَةُ وَالْأَطْفاَلُ بِانْتِظاَرِهِ عَلىَ الْجَزِيرَةِ، يَرْقُصوُنَ ضاَحِكِينَ، وَيَضَعوُنَ في جيدِهِ أَطْواَقاً مِنَ الزُّهوُرِ. دَناَ مِنْهُ زَعِيمُ الْقَرْيَةِ وَأَشاَرَ لَهُ بِقُنَّةِ الْجَبَلِ. أَدْرَكَ روُبِرْتْ لُوِيسْ سْتِفِنْسُنْ أَنَّ عَلَيْهِ بُلوُغَهاَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ لِمَ. فَكَّرَ أَنَّهُ بِمَصاَعِبِ جِهاَزِهِ التَّنَفُّسِيِّ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَبَداً بُلوُغَ الْقِمَّةِ، فَحاَوَلَ أَنْ يَشْرَحَ لِلْأَهاَلي وَضْعَهُ بِإِيْماَءاَتٍ تَقْرِيبِيَّةٍ. لَكِنَّهُمْ كاَنواُ قَدْ فَطِنواُ لِلْأَمْرِ، فَأَعَدواُّ لَهُ كُرْسِيّاً بِحَماَّلِينَ مَجْدوُلاً مِنْ أَغْصاَنِ الْأَسَلِ وَسَعْفِ النَّخِيلِ. اعْتَلاَهُ روُبِرْتْ لُوِيسْ سْتِفِنْسُنْ، فَرَفَعَهُ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْأَهاَلِي الشِّداَدِ فَوْقَ أَكْتاَفِهِمْ وَبَدَؤواُ يَتَسَلَّقوُنَ الْجَبَلَ. صُعوُداً، اكْتَشَفَ روُبِرْتْ لُوِيسْ

سْتِفِنْسُنْ مَنْظَراً شامِلًا يَصْعُبُ تَصْدِيقُهُ بِأُمِّ عَيْنَيْهِ: رَأَى اسْكُتْلَنْداَ وَفَرَنْساَ، أَمْرِيكاَ وَنْيوُيوُرْكْ، وَكُلَّ حَياَتِهِ الْماَضِيَّةَ، وَالَّتِي ماَ زاَلَتْ آتِيَةً. عَلىَ طوُلِ خاَصِرَتَيِ الْجَبَلِ، أَشْجاَرٌ باَسِقَةٌ وَأَزْهاَرٌ لاَحِمَةٌ كاَنَتْ تُتْرِعُ الْهَواءَ بِعَبَقٍ يُوْسِعُ رِئَتَيْهِ.

تَوَقَّفَ الْأَهاَلِي قُباَلَةَ مَغاَرَةٍ وَجَثَواْ مُلاَقِينَ سِيقاَنَهُمْ. أَدْرَكَ روُبِرْتْ لُوِيسْ سْتِفِنْسُنْ أَنَّ عَلَيْهِ وُلوُجَهاَ، أَمَدوُّهُ بِمِشْعَلٍ فَدَخَلَ. كاَنَ الْجَوُّ باَرِداً، كاَنَ لِلْهَواءِ عَبِيرُ الْمِسْكِ. تَقَدَّمَ روُبِرْتْ لُوِيسْ سْتِفِنْسُنْ فيِ شِعاَبِ الْجَبَلِ إِلىَ أَنْ بَلَغَ غُرْفَةً طَبِيعِيَّةً كاَنَتْ بَعْضُ الزَّلاَزِلِ فِي الْماَضِي السَّحِيقِ قَدْ حَفَرَتْهاَ فيِ الصَّخْرِ مَعَ بَعْضِ الصَّواَعِدِ الضَّخْمَةِ. كاَنَ يَتَواَجَدُ وَسْطَ الْغُرْفَةِ صُنْدوُقٌ فِضِّيٌّ. فَتَحَهُ روُبِرْتْ لُوِيسْ سْتِفِنْسُنْ فَوَجَدَ أَنَّ بِداَخِلِهِ كِتاَباً. كِتاَباً يَتَحَدَّثُ عَنْ جَزِيرَةٍ، وَأَسْفاَرٍ وَمُغاَمَراَتٍ، وَعَنْ طِفْلٍ وَقَراَصِنَةٍ؛ وَكاَنَ اسْمُهُ بِعَيْنِهِ مَرْسوُماً عَلىَ الْكِتاَبِ. خَرَجَ بَعْدَهاَ مِنَ الْمَغاَرَةِ، أَصْدَرَ لِلْأَهاَلِي الْأَمْرَ بِالْعَوْدَةِ لِلْقَرْيَةِ، ثُمَّ تَسَلَّقَ الْجَبَلَ حَتىَّ قِمَّتِهِ مُتَأَبِّطاً الْكِتاَبَ. فَاضْطَجَعَ فَوْقَ الْعُشْبِ وَفَتَحَهُ عَلىَ صَفْحَتِهِ الْأُوْلىَ. كاَنَ مُدْرِكاً أَنَّهُ باَقٍ هُناَكَ، عَلىَ هَذِهِ الْقِمَّةِ، مُنْهَمِكاً فيِ قِراَءَةِ الْكِتاَبِ. لِأَنَّ الْهَواءَ كاَنَ نَقِيّاً، وَلِأَنَّ الْقِصَّةَ كاَنَتْ كَالْهَواءِ، تَنْشَرِحُ بِهاَ الروُّحُ؛ وَكاَنَ انْتِظاَرُ النِّهاَيَةِ جَمِيلًا، هُناَكَ، بِالْاسْتِغْراَقِ فيِ الْقِراَءَةِ.

١٣

حُلْمُ أَرْثُورْ رامْبُو، شاعِراً وَمُتَسَكِّعاً



شارْلْفِيلْ Charleville، ١٨٤٥ ـ مارْسِيلْيا، ١٨٩١. وُلِدَ لِأُسْرَةٍ يَطْبَعُها التَّسَلُّطُ، وَالتَّزَمُّتُ الدِّينِيُّ وَالْمُحافَظَةُ. هَرَبَ مِنْ بَيْتِ الْعائِلَةِ نَحْوَ بارِيسْ فِي سِنِّ السادِسَةِ عَشْرَةَ لِلانْضِمامِ إِلَى انْتِفاضَةِ الْكُومُونَةِ، وَهُناكَ بَدَأَ حَياةً مُضْطَرِبَةً مِلْؤُها التَّسَكُّعُ وَالْمُغامَرَةُ. عَبَرَ الْمَشْهَدَ الشِّعْرِيَّ الْفَرَنْسِيَّ كَنَيْزَكٍ، تارِكاً قَصائِدَ رُؤْيَوِيَّةً ذاتَ غِنائِيَّةٍ غَرِيبَةٍ. أَحَبَّ الشاعِرَ پُولْ فِرْلِينْ Paul Verlaine الَّذِي أَصابَهُ بِطَلْقَةِ مُسَدَّسٍ خِلالَ إِحْدَى الْخُصُوماتِ. جَرَّبَ الْجُوعَ وَأَسِرَّةَ الْمُسْتَشْفَياتِ. تَسَكَّعَ عَبْرَ أُورُبا رُفْقَةَ فِرْقَةٍ لِلسِّيرْكِ. بَعْدَ أَنْ غادَرَ الْقَصِيدَةَ، صارَ مُهَرِّباً فِي الْحَبَشَةِ. عادَ إِلَى فَرَنْسا بِسَبَبِ وَرَمٍ فِي إِحْدَى رُكْبَتَيْهِ، مِمّا اسْتَدْعَى بَتْرَها لِيَمُوتَ إِثْرَها فِي مُسْتَشْفَى مارْسِيلْيا.

فيِ لَيْلَةِ الثاَّلِثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ حُزَيْرانْ/ يوُنْيَهْ ١٨٩١، فيِ مُسْتَشْفىَ مَرْسيِلْياَ، رَأىَ أَرْثوُرْ رامْبوُ، الشاَّعِرُ وَالْمُتَسَكِّعُ، مَناَماً. رَأىَ أَنَّهُ كاَنَ يَعْبُرُ الْأَرْدِينَ[١]. كاَنَ يَحْمِلُ ساَقَهُ الْمَبْتوُرَةَ تَحْتَ ذِراَعِهِ وَكاَنَ يَسْتَنِدُ إلِىَ عُكاَّزَةٍ. كاَنَتِ الساَّقُ الْمَبْتوُرَةُ مَلْفوُفَةً فيِ وَرَقِ جَريِدَةٍ كاَنَتْ قَدْ طُبِعَتْ عَلَيْهاَ إحْدىَ أَشْعاَرِهِ بِالْبَنْطِ الْعَريِضِ.

كاَنَ اللَّيْلُ قَدِ انْتَصَفَ بِالْكاَدِ، وَالْقَمَرُ فيِ اكْتِماَلٍ. كاَنَتِ الْحُقوُلُ بِلَوْنِ الْفِضَّةِ، وَكاَنَ أَرْثوُرْ يُغَنيِّ. بَلَغَ مَدْخَلَ أَحَدِ بُيوُتاَتِ الْفَلاَّحِينَ، وَكاَنَتْ إحْدىَ نَواَفِذِهِ مُضاَءَةً. اضْطَجَعَ فيِ الْحَقْلِ، تَحْتَ شَجَرَةِ لَوْزٍ ضَخْمَةٍ، وَواَصَلَ الْغِناَءَ. كاَنَ يُغَنيِّ أُغْنِيَّةً ثَوْرِيَّةً وَتَسَكُّعِيَّةً تَحْكيِ عَنْ امْرَأَةٍ وَبُنْدُقِيَّةٍ. انْفَتَحَ الْباَبُ بَعْدَ بُرْهَةٍ، خَرَجَتْ اِمْرَأَةٌ وَتَقَدَّمَتْ. كاَنَتْ فَتِيَّةً، مُنْسَدِلَةَ الْخُصْلاَتِ. إنْ رَغِبْتَ فيِ بُنْدُقِيَّةٍ كَماَ تَقوُلُ بِذَلِكَ أُغْنِيَّتُكَ، أَناَ بِإمْكاَنيِ إعْطاَؤُهاَ لَكَ، قاَلَتِ الْمَرْأَةُ، ليِ واَحِدَةٌ فيِ مَخْزَنِ الْغِلاَلِ.

---

(١) Les Ardennes.

شَدَّ رامْبوُ علىَ ساقِهِ الْمَبْتوُرَةِ وَأَخَذَ يَضْحكُ. سَأَلْتَحِقُ بِكُمونَةِ بارِيسَ، قالَ، وَأَحْتاجُ لِبُنْدُقِيَّةٍ.

قادَتْهُ الْمَرْأَةُ حتىّ مَخْزَنِ الْغِلالِ. كانَ بِناَيَةً مِنْ طابَقَيْنِ. في الدَّوْرِ الأَرْضِيِّ، كانَتْ ثَمَّةَ شِياهٌ، وَفي الفَوْقِيِّ الَّذي يَتِمُّ وُلوُجُهُ مِنْ خِلالِ سُلَّمٍ، كانَ ثَمَّةَ مَخْزَنُ الْغِلالِ. لا يُمْكِنُني الصُّعوُدُ علِ هُناكَ، قالَ رامْبوُ، سَأَنْتَظِرُكِ هُناَ، بَيْنَ الشِّياهِ. اضْطَجعَ علىَ التِّبْنِ وَخلَعَ سِرْوالَهُ. عِنْدَماَ نَزَلَتِ الْمَرْأَةُ، وَجَدَتْهُ مُسْتَعِداً لِمُناَوَمَتِهاَ. إنْ رَغِبْتَ في امْرَأةٍ كَماَ تَقوُلُ بِذَلِكَ أُغْنِيَّتُكَ، قالَتِ الْمَرْأَةُ، أَناَ بِإمْكاَنِي إعْطاَؤُهاَ لَكَ. عانَقَهاَ رامْبوُ وَسَأَلَهاَ: ماَ اسْمُهاَ، هَذِهِ الْمَرْأَةُ؟ اسْمُهاَ أُورِيلْياَ[1] لِأَنَّهاَ امْرَأَةٌ مُنْبَثِقَةٌ مِنَ الْحُلْمِ. ثُمَّ تَخلَّصَتْ مِنْ أَرْدِيَتِهاَ.

تَعاشَقاَ بَيْنَ الشِّياهِ، وَكانَ رامْبوُ يُمْسِكُ بِساقِهِ الْمَبْتوُرَةِ علىَ مَقْرُبَةٍ مِنْهُ. عِنْدَماَ فَرَغاَ مِنْ تَعَشُّقاَتِهِماَ، قالَتِ الْمَرْأَةُ: ابْقَ. لا أَسْتَطِيعُ، أَجاَبَ رامْبوُ، علَيَّ الانْصِرافُ، تَعالَيْ مَعي خارِجاً، لِنرىَ الْفَجْرَ يَبْزُغُ. عِنْدَماَ خَرَجاَ مَعاً لِلْباَحَةِ، كانَ النَّهارُ جلِيّاً. أَنْتِ، أَنْتِ لا تَسْمَعينَ هاَتِهِ الصَّرَخاَتِ، قالَ رامْبوُ، لَكِنَّني أَناَ أَسْمَعُهاَ، إنَّهاَ قادِمَةٌ مِنْ بارِيسَ وَتُنادِيني، إنَّهاَ الْحُرِّيَّةُ، إنَّهُ نِداءُ الْبَعيدِ.

---

(١) Aurelia.

كانَتِ الْمَرْأَةُ ماَ زاَلَتْ عاَرِيَّةً، تَحْتَ شَجَرَةِ الْيوُسُفِيِّ. أَتْرُكُ لَكِ ساَقِي، قاَلَ راَمْبوُ، اعْتِني بِهاَ.

ثُمَّ تَوَجَّهَ نَحْوَ الطَّرِيقِ الرَّئِيسَةِ. ياَ لَلْعَجَبِ، فَهْوَ لَمْ يَعُدِ الْآنَ يَعْرَجُ. كاَنَ يَمْشي كَماَ لَوْ كاَنَتْ لَهُ ساَقاَنِ. كاَنَتِ الطَّرِيقُ تُطَقْطِقُ تَحْتَ قَباَقِيبِهِ. كاَنَ الْفَجْرُ شَفَقِيّاً فيِ الْأُفُقِ. أَماَّ هُوَ، فَكاَنَ يُغَنيِّ، وَكاَنَ سَعيِداً.

١٤

حُلْمُ أَنْطُونْ تْشيكوُفْ، كاَتِباً وَطَبِيباً



١٨٦٠ ـ ١٩٠٤. كاَتِبٌ وَمَسْرَحِيٌّ روُسِيٌّ. كاَنَ طَبِيباً، لَكِنَّهُ لَمْ يُماَرِسْ هَذِهِ الْمِهْنَةَ إِلَّا أَوْقاَتَ الْعَوَزِ وَانْتِشاَرِ الْأَوْبِئَةِ. كاَنَ مُصاَباً بِالسُّلِّ الرِّئَوِيِّ. في ١٨٩٠، عَبَرَ سيبِرْياً لِبُلوُغِ جَزِيرَةِ سَخاَلِينْ النائِيَةِ، مَقَرِّ إِحْدى مُسْتَوْطَناَتِ الْعِقاَبِ، وَخَرَجَ مِنْ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ بِكِتاَبٍ يَصِفُ فيهِ الْأَحْواَلَ الرَّهيبَةَ لِلْمَحْكوُمِينَ بِالْأَشْغاَلِ الشاَّقَّةِ. أَحَبَّ مُمَثِّلَةً مَسْرَحِيَّةً. كَتَبَ في الْقِصَّةِ الْقَصيرَةِ، وَالدَّراماَ وَالْمَلْهاَةِ. أَجْواَءُ نُصوُصِهِ يَمْتَحُها مِنَ الْحَياَةِ الْيَوْمِيَّةِ، مِنْ أَوْضاَعِ الْفُقَراَءِ، وَالْأَطْفاَلِ، وَالْأَشْياَءِ الصَّغيرَةِ وَالْكَبيرَةِ في الْحَياَةِ.

فيِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالـيِ ١٨٩٠، بَيْـنَمـاَ كـاَنَ مُـتَـواَجِـداً فـيِ جَـزِيـرَةِ سَخاَلِينْ(١) حَيْثُ حَلَّ فيِ زِياَرَةٍ لِبَعْضِ الْمُعْتَقَلِينَ، رَأىَ أَنْطوُنْ تْشيِكوُفْ، الْكاَتِبُ وَالطَّبيِبُ، مَناَماً. رَأىَ أَنَّهُ فيِ غُرْفَةٍ جَماَعِيَّةٍ بِمُسْتَشْفىً وَأَنَّهُ كاَنَ مَشْلوُلَ الْحَرَكَةِ فيِ وِزْرَةِ الْمَجاَنِينِ. كاَنَ بِجاَنِبِهِ شَيْخاَنِ مَنْهوُكاَنِ يَهْذِياَنِ فيِ نَوْبَةِ جُنوُنِهِماَ. أَماَّ هُوَ فَكاَنَ يَقِظاً، صاَحِياً، مُتَيَقِّناً مِنْ نَفْسِهِ، وَوَدَّ لَوْ يَكْتُبُ قِصَّةً تَتَحَدَّثُ عَنْ حِصاَنٍ. قَدِمَ طَبيِبٌ يَرْتَدِي الْأَبْيَضَ، فَطَلَبَ مِنْهُ تْشيِكوُفْ وَرَقاً وَرِيشَةً.

سِياَدَتُكُمْ، لَا تَسْتَطِيعوُنَ الْكِتاَبَةَ، لِأَنَّكُمْ تُعاَنوُنَ مِنْ نِسْبَةٍ عاَلِيَّةٍ مِنَ النَّزْعَةِ التَّأَمُّلِيَّةِ، قاَلَ الطَّبيِبُ، لَسْتُمْ إِلَّا كاَتِباً أَخْلاَقِيّاً بَئِيساً، وَماَ تَطْلُبوُنَهُ لَا قِبَلَ لِمَجْنوُنٍ بِهِ.

ماَ اسْمُ سِياَدَتِكُمْ؟ ساَءَلَهُ أَنْطوُنْ تْشيِكوُفْ.

لَا أَسْتَطيعُ أَنْ أَقوُلَ لَكُمْ إِسْمِي، أَجاَبَ الطَّبِيبُ، لَكِنْ لَكُمْ أَنْ

(١) Sakhaline.

تَعْرِفواْ أَنيِّ أَزْدَري الناَّسَ الَّذينَ يَكْتُبوُنَ، خُصوُصاً أُوْلَئِكَ الَّذينَ يُعانُونَ مِنْ نِسْبَةٍ عالِيَّةٍ مِنَ النَّزْعَةِ التَّأَمُّلِيَّةِ. النَّزْعَةُ التَّأَمُّلِيَّةُ خَرابُ الْعالَمِ.

أَحَسَّ أَنْطوُنْ تْشيكوُفْ بِرَغْبَةٍ عارِمَةٍ في صَفْعِهِ، لَكِنَّ الطَّبيبَ، أَثْناءَ ذَلِكَ، كانَ قَدْ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ أَحْمَرَ الشِّفاهِ وَبَدَأَ يُعَدِّلُ زينَتَهُ ثانِيَّةً. ثُمَّ اعْتَمَرَ باروُكَةً وَصاحَ: أَناَ مُمَرِّضَتُكَ، لَكِنَّكَ لا تَسْتَطيعُ الْكِتابَةَ، لِأَنَّكَ تُعاني مِنْ نِسْبَةٍ عالِيَّةٍ مِنَ النَّزْعَةِ التَّأَمُّلِيَّةِ، لَسْتَ سِوَى كاتَباً أَخْلاقِياً، وَأَتَيْتَ إلى سَخالِينْ بِثِيابِ النَّوْمِ. وَهْوَ يَتَفَوَّهُ بِكُلِّ هَذاَ، حَرَّرَ لَهُ ذِراعَيْهِ.

أَنْتَ شَيْطانٌ بَئِيسٌ، قالَ أَنْطوُنْ تْشيكوُفْ، وَلا تَعْرِفُ حَتىَّ الْأَحْصِنَةَ.

وَلِمَ يَنْبَغي لي أَنْ أَعْرِفَ الْأَحْصِنَةَ؟ سَأَلَهُ الطَّبيبُ، أَناَ لا أَعْرِفُ إلَّا مُديرَ الْمُسْتَشْفى.

مُديرُكَ حِمارٌ، قالَ أَنْطوُنْ تْشيكوُفْ، وَلَيْسَ حِصاناً، إنَّهُ دابَّةٌ لا يَليقُ بِهاَ إلَّا أَنْ تَكوُنَ مَطِيَّةً، لَقَدْ تَحَمَّلَ الْكَثيرَ في حَياتِهِ. ثُمَّ أَضافَ: دَعْني أَكْتُبْ.

لَكِنَّكَ لا تَسْتَطيعُ الْكِتابَةَ، قالَ الطَّبيبُ، ماَ دُمْتَ مَجْنوُناً.

تَقَلَّبَ الشَّيْخانِ اللَّذانِ كاناَ بِجانِبِهِ في فِراشِهِماَ، وَنَهَضَ أَحَدُهُماَ قَصْدَ التَبَوُّلِ في الْمِبْوَلَةِ.

لَا يُهِمُّ، قَالَ أَنْطُونْ تْشِيكُوف، سَأُعْطِيكَ خِنْجَراً لِتَضَعَهُ بَيْنَ أَسْنَانِكَ؛ وَبِهَذاَ الْخِنْجَرِ فِي الْفَمِ سَتُقَبِّلُ مُدِيرَ الْمِصَحَّةِ، وَهَكَذاَ سَتَيْمْضِيَانِ مَعاً فِي قُبْلَةٍ فُولَاذِيَّةٍ.

ثُمَّ انْقَلَبَ جُنُباً وَبَدَأَ يُفَكِّرُ فِي حِصَانٍ. وَفِي حَوْذِيٍّ. كَانَ الْحَوْذِيُّ حَزِيناً، لِأَنَّهُ كَانَ يَبْحَثُ عَمَّنْ سَيَحْكِي لَهُ قِصَّةَ مَوْتِ وَلَدِهِ. لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَجِدُ الْآذَانَ الصاَّغِيَةَ، لَمْ يَكُنْ لِلناَّسِ وَقْتٌ يُخَصِّصُونَهُ لَهُ، كَماَ أَنَّهُمْ كَانواُ يَعْتَبِرُونَهُ مُتَطَفِّلًا. مِماَّ جَعَلَهُ يَحْكِي قِصَّتَهُ لِحِصاَنِهِ الَّذِي كَانَ دَابَّةً صَبُورَةً. كَانَ حِصَاناً هَرِماً ذاَ عَيْنَيْنِ آدَمِيَّتَيْنِ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، أَتىَ حِصَانَانِ مُجَنَّحاَنِ رَكْضاً، تَمْتَطِيهِماَ امْرَأَتَانِ يَعْرِفُهُماَ تْشِيكُوف. كَانَتاَ مُمَثِّلَتَيْنِ، وَبِيَدِهِماَ غُصْنُ كَرْزٍ مُزْهِرٌ. أَعْقَلَ الْحَوْذِيُّ الْحِصاَنَيْنِ لِعَرَبَتِهِ، جَلَسَ أَنْطُونْ تْشِيكُوف عَلىَ الدَّكَّةِ وَانْطَلَقَتِ الْعَرَبَةُ مِنَ الْقاَعَةِ الْجَماَعِيَّةِ بِالْمُسْتَشْفىَ، عَبَرَتْ إِحْدىَ الْفُرْجَتَيْنِ الزُّجاَجِيَّتَيْنِ لِتَجِدَ نَفْسَهاَ حُرَّةً فِي السَّماَءِ. بَيْنَماَ كَانواُ يُحَلِّقُونَ فِي السُّحُبِ، كَانواُ يَنْظُرُونَ لِلطَّبِيبِ بِبَارُوكَتِهِ وَهُوَ يَقُومُ بِإِيْماَءاَتٍ تُعَبِّرُ عَنِ الْحَسْرَةِ وَيَكِيلُ لَهُمُ الشَّتاَئِمَ. تَرَكَتِ الْمُمَثِّلَتاَنِ بَتَلَتَيْنِ مِنْ زَهْرَةِ الْكَرْزِ تَتَساَقَطاَنِ، فَتَبَسَّمَ الْحَوْذِيُّ قاَئِلًا: لِي قِصَّةٌ أُرِيدُ أَنْ أَحْكِيهاَ، إِنَّهاَ قِصَّةٌ حَزِينَةٌ، لَكِنيِّ أَظُنُّ، أَنَّكَ، أَنْتَ، عَزِيزِي تْشِيكُوف، سَتَتَفَهَّمُنِي.

اِتَّكَأَ أَنْطوُنْ تْشيِكوُف عَلىَ مَسْنَدِ الدَّكَّةِ، أَدارَ وِشاَحاً بِعُنُقِهِ وَقاَلَ: لَدَيَّ ماَ يَكْفيِ مِنَ الْوَقْتِ، بِكُلِّ سِعَةِ صَدْرِي، كَماَ أَنيِّ أُحِبُّ حَكاَياَ النأّسِ.

١٥

حُلْمُ كْلوُدْ دِيبوُسيٍّ،
موُسيِقَاراً وَمُوْلَعاً بِالْجَمَالِ



سـاَنْ ـ جِـرْمـاَنْ ـ أُنْ ـ لَايْ Saint-Germain-en-Laye، ١٨٦٢ ـ بـاَريِـسْ، ١٩١٨. دَرَسَ الْموُسيِقىَ مَعَ الْأُسْتاَذَيْنِ ماَرْموُنْتيِلْ Marmontel وَگيِروُ Guiraud. حَصَلَ عَلىَ جاَئِزَةِ روُماَ. مَعَ إِقاَمَتِهِ لِثَلَاثِ سَنَواَتٍ فيِ فيِلَّا مِدسيِسْ Médicis، تَحَمَّسَ لِموُسيِقىَ فاَگْنِرْ Wagner، لَكِنَّ هَذِهِ الْحَماَسَةَ تَبَدَّدَتْ فيِماَ بَعْدُ. أَثْناَءَ الْمَعْرِضِ الْعاَلَمِيِّ لِباَريِسْ، انْبَهَرَ بِالْموُسيِقىَ الشَّرْقِيَّةِ الَّتيِ أَخَذَتْ تَطْبَعُ أَعْماَلَهُ التاَّلِيَةَ. أَحَبَّ الرَّمْزِييِّنَ، الْانْطِباَعِيِّنَ، بَلْ حَتىَّ الْانْحِطاَطِييِّنَ. عاَشَ مُتْرَفاً وَمُنْعَزِلاً، مُتَفَرِّغاً لِلْموُسيِقىَ وَالْفَنِّ.

فِي لَيْلَةِ التاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ حُزَيْرَانْ/ يونْيَهْ ١٨٩٣، لَيْلَةٍ صَيْفِيَّةٍ صافِيَّةٍ، رَأى كْلودْ دِيبوسيّ، الْموسِيقارُ وَالْمُولَعُ بِالْجَمالِ، في مَنامِهِ أَنَّهُ يَتواجَدُ بِشاطِئٍ. كأنَ شاطِئاً يَتواجَدُ بِالْمُسْتَنْقَعاتِ الطوسْكانِيَّةِ، تَحُدُّهُ أَجَماتٌ وَأَشْجارُ صَنَوْبَرٍ. أَتى دِيبوسيّ لابِساً سِرْوالًا مِنَ الصوفِ، مُعْتَمِراً قُبَّعَةً مِنَ الْقَشِّ، وَلَجَ الْمَقْصورَةَ الَّتي خَصَّتْهُ بِها بِنْكي، وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيابِهِ. لَمَحَ بِنْكي عَلىَ الشاطِئِ، لَكِنَّهُ بَدَلَ أَنْ يُحَيِّيها بِإيماءَةٍ انْسَلَّ نَحْوَ عَتْمَةِ الْمَقْصورَةِ. كانَتْ بِنْكي امْرَأَةً جَميلَةً، تَمْتَلِكُ فيلا، وَكانَتْ تَهْتَمُّ بِالسَّباحِينَ الْقَلائِلِ الْمَدْعُوِّينَ عَلىَ شاطِئِها الْخُصوصِيِّ، وَكانَتْ تَتَجَوَّلُ عَلىَ الساحِلِ، مُشْتَمِلَةً بِرِداءٍ أَزْرَقٍ سَماوِيٍّ يَتَدَلّىَ مِنْ قُبَّعَتِها. كانَتْ تَمْتَدُّ أَرومَتُها لِنَبالَةٍ عَتيقَةٍ بِحَيْثُ كانَتْ تَرْفَعُ الْكُلْفَةَ عَنِ الْجَميعِ. وَكانَ هَذا الْأَمْرُ لا يَروقُ بَتاتاً دِيبوسيّ الَّذي كانَ يُحِبُّ أَنْ يُعامَلَ حَسَبَ الْمُواضَعاتِ.

قَبْلَ أَنْ يَرْتَدِيَ بِزَّتَهُ، قامَ بِثَنْيِ رُكْبَتِهِ لِمَراتٍ عَديدَةٍ، ثُمَّ أَطالَ في تَحَسُّسِ إِحْليلِهِ الَّذي كانَ مُنْتَصِفَ الانْتِصابِ، لِأَنَّ رُؤْيَةَ هَذا

الشاَطِئِ الْقَفْرِ، مَعَ الشَّمْسِ وَزُرْقَةِ الْبَحْرِ، كَانَتْ تُثِيرُ فِيهِ تَهَيُّجاً خاَصاً. ارْتَدى بِزَّةً قاتِمَةً، زَرْقاَءَ اللَّوْنِ، مُزَرْكَشَةً بِنُجَيْمَتَيْنِ بَيْضاَوَيْنِ عَلىَ الْكَتِفَيْنِ. في تِلْكَ اللَّحْظَةَ لِمَحَ أَنَّ پِنْكي وَالْكَلْبَيْنِ الدأَنِمَرْكِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ يُرافِقاَنِها طيلَةَ الْوَقْتِ اخْتَفواُ، وَأَنَّ ماَ مِنَ أَحَدٍ عَلىَ الشاَطِئِ. عَبَرَ دِيبوُسيٍّ الشاَطِئَ بِزُجاجَةِ الشاَمْپاَنِياَ الَّتي أَتىَ بِهاَ. لَماَّ وَصَلَ جَنْبَ الْماَءِ، حَفَرَ حُفْرَةً صَغيرَةً في الرَّمْلِ وَوَضَعَ فيهِ الزُّجاجَةَ لِكَيْ تَبْقى بارِدَةً، ثُمَّ وَلَجَ الْبَحْرَ وَأَخَذَ يَسْبَحُ.

أَحَسَّ مُباَشَرَةً بِالْأَثَرِ الْحَسَنِ لِلْماَءِ. كاَنَ يُحِبُّ الْبَحْرَ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ وَوَدَّ لَوْ يُهْدِيهِ مَقْطوُعَةً موُسيقِيَّةً. كاَنَتِ الشَّمْسُ في سَمَتِ السَّماَءِ وَكاَنَتْ صَفْحَةُ الْماَءِ تَتَلأْلأُ. آبَ دِيبوُسيٍّ بِتُؤْدَةٍ، سابِحاً عَلىَ بَطْنِهِ. لَماَّ بَلَغَ الشاَطِئَ، اقْتَلَعَ زُجاجَةَ الشاَمْپاَنْياَ وَعَبَّ زُهاَءَ نِصْفِهاَ. أَتاَهُ انْطِباَعٌ كَأَنَّ الزَّماَنَ تَوَقَّفَ، فَتَفَكَّرَ أَنَّ هَذاَ عَيْنُهُ ماَ يَنْبَغي أَنْ يَصْنَعَ الْموُسيقىَ: إِيْقاَفُ الزَّماَنِ.

تَقَدَّمَ نَحْوَ الْمَقْصوُرَةِ وَتَعَرىَّ. بَيْنَماَ كاَنَ يَتَجَرَّدُ مِنْ ثِياَبِهِ، سَمِعَ أَصْواَتاً في الدَّغَلَ فَدَلَفَ نَحْوَ النافِذَةِ. بَيْنَ الْحَشاَئِشِ، عَلىَ بُعْدِ أَمْتاَرٍ قُدأَمَهُ، رَأى إِلَهاً مِنَ الْآلِهَةِ الرَّعَوِيَّةِ يَتَغَزَّلُ في حوُرِيَّتَيْنِ. كاَنَتْ إِحْداَهُماَ تُداَعِبُ كَتِفَهُ، بَيْنَماَ الْأُخْرىَ، في قِمَّةِ ارْتِخاَءِهاَ، كاَنَتْ قَدْ شَرَعَتْ في حَرَكاَتٍ راَقِصَةٍ.

أَحَسَّ دِيبوُسيّ بِإِنْهاَكٍ شَديدٍ فَبَدَأَ يَتَحَسَّسُ جَسَدَهُ بِتُؤْدَةٍ. ثُمَّ تَقَدَّمَ فيِ الدَّغَلِ. عِنْدَماَ لَمَحوُهُ آتِياً، تَبَسَّمَتِ لَهُ الْمَخْلوُقاَتُ الثَّلاَثَةُ وَبَدَأَ الْإِلَهُ يَعْزِفُ بِالْمِزْماَرِ. كاَنَتْ تِلْكَ بِالضَّبْطِ الْموُسيِقىَ الَّتيِ وَدَّ دِيبوُسيّ لَوْ أَلَّفهاَ، فَسَجَّلَهاَ فيِ ذاَكِرَتِهِ. ثُمَّ جَلَسَ فيِ قِمَّةِ الصَّنَوْبَرةِ مُنْتَصِبَ الْإِخْليِلِ. حيِنَئِذٍ هَمَّ الْإِلَهُ بِحوُرِيَّةٍ وَضاَجَعَهاَ. أَماَّ الْأُخْرىَ، فَبِخِفَّةِ خُطْوَةٍ راَقِصَةٍ، دَنَتْ مِنْ دِيبوُسيٍّ وَأَخَذَتْ تُداَعِبُ بَطْنَهُ. كاَنَ الْوَقْتُ ظَهيِرَةً، وَكاَنَ الزَّماَنُ مُتَوَقِّفاً.

١٦

حُلْمُ هُنْرِي دوُ تولوُزْ لوُتْرِيك، تَشْكيلِيّاً وَرَجُلاً شَقِيّاً



آلْبي، ١٨٦٤ ـ مالْرومي Malromé، ١٩٠١. يَنْحَدِرُ مِنْ عائِلَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ عَريقَةٍ وَنَبيلَةٍ. كانَ تَشْكيلِياً، رَساماً وَرَقاشاً عَلىَ الْحَجَرِ. بِسَبَبِ جِسْمِهِ الْمُشَوَّهِ، وَلاِنْعِكاساتِهِ النَّفْسِيَّةِ، عاشَ في بارِيسْ حَياةً قَلِقَةً، مُضْطَرِبَةً، لا تَعْرِفُ الْاسْتِقْرارَ. تَرَدَّدَ كَثيراً عَلىَ الْعُلَبِ اللَّيْلِيَّةِ، وَالْمَسارِحِ الْغِنائِيَّةِ وَالْمَواخيرِ. كانَ شَديدَ الْكُرْهِ لِلْمَدارِسِ وَالْأَكادِيمِياتِ. رَسَمَ الْبَهالِينَ، الْمُمَثِّلِينَ، الراقِصاتِ، السُّكارىَ، الْعاهِراتِ، الرَّذيلَةَ، الْبُؤْسَ وَالْعُزْلَةَ.

ذاتَ لَيْلَةٍ مِنْ لَيالِي مارِسْ/آذارْ ١٨٩٠، فِي أَحَدِ مَواخيرِ بارِيسَ، بَعْدَ أَنْ رَسَمَ مُلْصَقاً لِإحْدىَ الراقِصاتِ الَّتِي كانَ يُحِبُّها مِنْ جانِبِهِ فَقَطْ، رَأىَ هُنْري دوُ تولُوزْ لوُتْريكْ، التَّشْكيلِيُّ والرَّجُلُ الشَّقِيُّ، مَناماً. رَأىَ أَنَّهُ كانَ في ريفِ مَدينَتِهِ آلْبي[1]، وَأَنَّ الْفَصْلَ كانَ صَيْفاً. كانَ مُتواجِداً تَحْتَ شَجَرَةِ كَرْزٍ مُثْقَلَةٍ بِالثِّمارِ وَكانَ يَوَدُّ لَوْ يَجْني ثَمْرَةً أَوْ ثَمْرَتَيْنِ، لَكِنَّ ساقَيْهِ الْقَصيرَتَيْنِ وَالْمُشَوَّهَتَيْنِ لَمْ تَكونا لِتَسْمَحا لَهُ بِبُلوغِ أَوَّلِ غُصْنٍ مُحَمَّلٍ بِالثَّمَراتِ. فَما كانَ مِنْهُ إِلّا أَنِ انْتَصَبَ عَلىَ أَصابِعِ رِجْلَيْهِ، وَكَأَنَّ الْأَمْرَ طَبيعِيٌّ لِلْغايَةِ شَرَعَتْ ساقاهُ في التَّمَدُّدِ إِلىَ أَنْ بَلَغَتا طولاً عادِياً. بَعْدَ أَنْ قَطَفَ الْكَرْزاتِ، شَرَعَتْ ساقاهُ ثانِيَةً في الْقِصَرِ إِلىَ أَنْ وَجَدَ هُنْري دوُ تولُوزْ لوُتْريكْ نَفْسَهُ بِقَدِّ الْقَزَمِ.

آهْ! كَذا تَعَجَّبَ، يُمْكِنُني إِذَنْ أَنْ أَنْمُوَ حَسَبَ رَغْبَتِي. وَأَحَسَّ بِالزَّهْوِ. كانَتِ السَّنابِلُ تُجاوِزُ طولَهُ أَماً هامَتُهُ فَكانَتْ تَشُقُّ خَطَّ الْمِحْراثِ في حَقْلِ الْقَمْحِ. كانَ قَدْ تَوَلَّدَ لَدَيْهِ الْانْطِباعُ بِأَنَّهُ في

---

(١) Albi.

غابَةٍ غريبَةٍ حَيْثُ يَنْبَغي لَهُ أَنْ يَمْشي مُتَحَسِّساً كَالْأَعْمى. كانَ هُناكَ جَدْوَلٌ عَلى حَدِّ الْحَقْلِ. رَأى هُنْري دوُ تولُوزْ لوُتْريكْ نَفْسَهُ في صَفْحَةِ الْماءِ كَما في مِرْآةٍ في صورَةِ قَزَمٍ ذَميمٍ ذي ساقَيْنِ مُشَوَّهَتَيْنِ، يَرْتَدي سِرْوالاً ذا مُرَبَّعاتٍ، مُعْتَمِراً قُبَّعَةً. انْتَصَبَ بِذَلِكَ عَلى أَصابِعِ رِجْلَيْهِ، فَاسْتَطالَتْ ساقاهُ بِرِفْقٍ، صارَ رَجُلاً طَبيعِيّاً فَعَكَسَتْ لَهُ الْمِياهُ صورَةَ رَجُلٍ جَميلٍ، فَتِيٍّ وَجَذّابٍ. تَقَزَّمَ هُنْري دوُ تولُوزْ لوُتْريكْ ثانِيَةً، تَجَرَّدَ مِنْ ثِيابِهِ وَغَطَسَ في الْجَدْوَلِ بَحْثاً عَنِ الرُّطوبَةِ. عِنْدَما أَنْهى اسْتِحْمامَهُ، تَنَشَّفَ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ، ثُمَّ ارْتَدى مَلابِسَهُ لِيَشُقَّ طَريقَهُ. كانَ الظَّلامُ قَدْ بَدَأَ يُخَيِّمُ، وَفي عُمْقِ الْمُنْبَسَطِ قُدّامَهُ، لاحَ لَهُ تاجٌ مِنَ النورِ. تَقَدَّمَ نَحْوَهُ مُكَرْدِحاً عَلى ساقَيْهِ الصَّغيرَتَيْنِ الْبالِغَتَيْنِ في الْقِصَرِ، وَعِنْدَما بَلَغَ مَرامَهُ، تَنَبَّهَ إِلى أَنَّهُ في بارِيسْ. هُوَ بِالضَّبْطِ أَمامَ عِمارَةِ الطّاحونَةِ الْحَمْراءِ(١)، بِجَناحَيْها النَّيِّرَيْنِ لِلطّاحونَةِ الَّذَيْنِ يَحومانِ فَوْقَ السَّطْحِ. كانَ يَزْدَحِمُ عِنْدَ الْمَدْخَلِ حَشْرٌ هائِلٌ، أَمامَ الشُّبّاكِ، بَيْنَما كانَ مُلْصَقٌ ذُو أَلْوانٍ فاقِعَةٍ يُعْلِنُ عَنْ فُرْجَةِ الْمَساءِ، عَنْ رَقَصاتٍ اسْتِعْراضِيَّةٍ. كانَ الْمُلْصَقُ يُمَثِّلُ راقِصَةً، ماسِكَةً بِتَلابيبِ تَنوّراتِها مَرْفوعَةً، وَهِيَ تَرْقُصُ في مُقَدِّمَةِ الْخَشَبَةِ، أَمامَ الْقَناديلِ الْغازِيَّةِ. انْجَذَلَ هُنْري دوُ

(١) Le moulin rouge.

تُولُوزْ لوُتْرِيكْ كَثِيراً، لِكَوْنِهِ مُصَمِّمَ الْمُلْصَقِ. وَتَفَادِياً لِمُخَالَطَةِ الْحَشْرِ، دَخَلَ مِنْ بابٍ ثانٍ. اخْتَرَقَ رُواقاً مُضاءً بِشَكْلٍ رَديءٍ إِلَى أَنْ بَلَغَ الْكَوالِيسَ. كانَتِ الْفُرْجَةُ قَدْ بَدَأَتْ بِالْكادِ. كانَتِ الْمُوسِيقى صاخِبَةً، وَكانَتْ جانْ أَفْرِيلْ[1]، فَوْقَ الْخَشَبَةِ، تَرْقُصُ كَمَنْ بِهِ مَسٌّ مِنَ الشَّيْطانِ. تَمَلَّكَتْ هُنْرِي دوُ تُولُوزْ لوُتْرِيكْ رَغْبَةٌ عارِمَةٌ في وُلوُجِ الْخَشَبَةِ بِدَوْرِهِ، وَفي الْأَخْذِ بِيَدِ جانْ أَفْرِيلْ لِيُراقِصَها. انْتَصَبَ عَلى أَصابِعِ رِجْلَيْهِ، فَاسْتَطالَتْ ساقاهُ تَواً. ارْتَمى في أَجْواءِ الرَّقْصِ بِحُمَياً، أَخَذَتْ قُبَّعَتُهُ الطَّوِيلَةُ تَدُورُ جانِباً بَيْدَ أَنَّهُ انْساقَ لِدَوامَةِ الرَّقْصَةِ الْاسْتِعْراضِيَّةِ. لَمْ تَكُنْ جانْ أَفْرِيلْ تَبْدوُ مُسْتَغْرِبَةً بَتاتاً لِكَوْنِهِ قَدْ صارَ بِقامَةٍ عادِيَّةٍ، كانَتْ تَرْقُصُ، تُغَنِّي وَتُعانِقُهُ، وَكانَ سَعِيداً. آنَذاكَ أُرْخِيَتِ السِّتارَةُ، اخْتَفَتِ الْخَشَبَةُ فَوَجَدَ هُنْرِي دوُ تُولُوزْ لوُتْرِيكْ نَفْسَهُ صُحْبَةَ رَفِيقَتِهِ جانْ أَفْرِيلْ في رِيفِ مَدِينَةِ آلْبِي. آناً، تُشِيرُ السّاعَةُ مِنْ جَدِيدٍ لِلزَّوالِ، وَكانَتِ الزَّنابِيرُ تَصِرُّ، كَأَنَّ الْخَبَلَ قَدْ أَصابَها. تَرَكَتْ جانْ أَفْرِيلْ نَفْسَها، مَنْهوُكَةً بِالْحَرارَةِ وَالرَّقْصِ، تَهْوِي تَحْتَ شَجَرَةِ بَلوُّطٍ وَرَفَعَتْ تَنوُّراتِها حَتىَّ الرُّكَبِ. ثُمَّ مَدَّدَتْ ذِراعَيْها وَما كانَ مِنْ هُنْرِي دوُ تُولُوزْ لوُتْرِيكْ إِلَّا أَنِ ارْتَمى بَيْنَهُما بِانْتِشاءٍ. ضَمَّتْهُ جانْ

---

(١) Jane Avril.

أَفْرِيلْ نَحْوَ نَهْدَيْهاَ وَهَدْهَدَتْهُ كَماَ طِفْلٍ. كُنْتَ تَروُقُنِي حَتىَّ بِساَقَيْكَ الْقَصِيرَتَيْنِ، كَذاَ وَشْوَشَتْ فيِ إِحْدىَ أُذُنَيْهِ، وَالْآنَ ماَ داَمَتْ قَدِ اسْتَطاَلَتاَ فَإِنَّكَ تَروُقُنِي أَكْثَرَ. تَبَسَّمَ هُنْرِي دوُ توُلوُزْ لوُتْرِيكْ، حَضَنَهاَ بِدَوْرِهِ، وَإِذْ جَذَبَ الْمِخَدَّةَ نَحْوَهُ، انْقَلَبَ لِلْجاَنِبِ الْأَخَرِ وَواَصَلَ حُلْمَهُ.

١٧

حُلْمُ فِرْنانْدوُ پِصُواًّ، شاعِراً وَمُخاتِلاً



لِشْبونَةُ، ١٨٨٨ ـ ١٩٣٥. فَقَدَ أباهُ صَغيراً. قَضىَ طُفولَتَهُ في إفْريقْيا الْجنوبيَّةِ حَيْثُ عُيِّنَ زَوْجُ أُمِّهِ قُنْصُلًا لِلْبُرْتُغالِ. كانَ دَوْماً واعِياً بِكَوْنِهِ عَبْقَرِياً وَمُتَخَوِّفاً مِنْ أَنْ يُصابَ بِالْجُنونِ كَجَدَّتِهِ لِأَبيهِ. كانَ مُتَأَكِّداً أَنَّهُ جَمْعٌ بِصيغَةِ الْمُفْرَدِ، وَقَبِلَ بِالْأَمْرِ في الْحَياةِ وَالْكِتابَةِ، بِحَيْثُ أَعْطى شُعَراءَ عَديدِينَ سَكَنوهُ صَوْتاً. بَلَغَ أَنْدادُهُ حوالَيْ ٧٢ اسْماً، مُعَلِّمُهُمْ أَلْبِرْطو كَيِيرُو، كانَ رَجُلًا ذا جَسَدٍ عَليلٍ، يَعيشُ مَعَ جَدَّةٍ طاعِنَةٍ في السِّنِّ في بَيْتٍ بِريفِ مَدينَةِ رِيباتِيخوُّ. عاشَ مُسْتَخْدَماً في إِحْدىَ وَكالاتِ التَّصْديرِ، مُتَرْجِماً لِلْمُراسَلاتِ التِّجارِيَّةِ. كانَ يُقيمُ غالِباً في غُرَفٍ مُتَواضِعَةٍ مُسْتَأْجَرَةٍ. أَحَبَّ لِمَرَّةٍ واحِدَةٍ في حَياتِهِ، حُباً عَنيفاً وَقَصيرَ الأَمَدِ، أُوفيلْيا كِيْروُزْ Ophélia Queiroz، مُسْتَخْدَمَةٌ كَراقِنَةٍ في إِحْدىَ الْوَكالاتِ حَيْثُ اشْتَغَلَ. «يَوْمُ النَّصْرِ» في حَياتِهِ كانَ يُصادِفُ الثّامِنَ مِنْ مارِسْ/آذارْ ١٩١٤، عِنْدَما بَدَأَ الشُّعَراءُ الَّذِينَ يَسْكُنونَهُ يَكْتُبونَ بِيَدِهِ.

لَيْلَةَ السابِعِ مِنْ مارِسْ/ آذارْ ١٩١٤، رَأى فِرْنانْدوُ پِصُواً، الشاعِرُ وَالْمُخاتِلُ، في الْمَنامِ أَنَّهُ يَسْتَفيقُ. تَناوَلَ فِنْجانَ قَهْوَةٍ في الْغُرْفَةِ الصَّغيرَةِ الَّتي كانَ مُسْتَأْجِرَها، حَلَقَ ذَقْنَهُ وَتَزَيىَّ بِشَكْلٍ جذابٍ. لَبِسَ مِعْطَفَهُ الْمُشَمَّعَ لِأَنَّها كانَتْ تُمْطِرُ بِالْخارِجِ. عِنْدَما خَرَجَ، كانَتْ عَقارِبُ الساعَةِ تُشيرُ لِلثامِنَةِ إلَّا ثُلْثانِ وَعِنْدَ تَمامِ الثامِنَةِ كانَ في الْمَحَطَّةِ، فَوْقَ مِرْقاةِ إحْدى عَرَباتِ الْقِطارِ الْمُتَّجِهِ تَواً إلى سَنْطارَيمْ(١). انْطَلَقَ الْقِطارُ في مَوْعِدِهِ الْمُحَدَّدِ، في الثامِنَةِ وَدَقائِقَ خَمْسٍ. اتَّخَذَ فِرْنانْدوُ پِصُواً لَهُ مَكاناً في مَقْصورَةٍ حَيْثُ كانَتْ تَقْعُدُ امْرَأَةٌ تَبْدو في الْخَمْسينَ مُنْهَمِكَةً في الْقِراءَةِ. كانَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ أُمَّهُ وَلَكِنَّها لَمْ تَكُنْ أُمَّهُ، وَكانَتْ مُسْتَغْرِقَةً في الْقِراءَةِ. فَراحَ فِرْنانْدوُ پِصُواً بِدَوْرِهِ يَقْرَأُ. كانَ عَلَيْهِ، في ذَلِكَ الْيَوْمِ، أَنْ يَقْرَأَ رِسالَتَيْنِ وَصَلَتاهُ مِنْ جَنوبِ أَفْريقْيا، وَتَحْكِيانِ لَهُ عَنْ طُفولَةٍ بَعيدَةٍ.

كَالْحَشائِشِ كُنْتُ، وَلَمْ يَقْتَلِعُوني، قالَتْ، في وَقْتٍ ما، الْمَرْأَةُ

---

(١) Santarém.

الَّتي كانَتْ تَبْدو في الْخَمْسينَ. راقَتِ الْعِبارَةُ فِرْنانْدو پِصُواً، فَدَوَّنَها في كُراسٍ. أَثْناءَها، كانَ مَنْظَرُ ريباتيخو(١) يَمُرُّ أَمامَ ناظِرَيْهِما، بِمِرْزاتِهِ وَحُقولِهِ.

عِنْدَما وَصَلا إلى سَنْطارِيمْ، اسْتَقَلَّ فِرْنانْدو پِصُواً عَرَبَةَ جِيادٍ. أَتَعْرِفُ أَيْنَ تَقَعُ إحْدى الْبُيوتاتِ الْمُنْعَزِلَةِ، بِطِلاءٍ جيرِيٍّ؟، سَأَلَ فِرْنانْدو پِصُواً الْحَوْذِيَّ. كانَ الْحَوْذِيُّ رَجُلاً قَصيرَ الْقامَةِ، سَميناً بَعْضَ الشَّيْءِ، مُحْمَرَّ الْأَنْفِ مِنْ إدْمانِ الْكُحولِ. بِالطَّبْعِ، قالَ الْحَوْذِيُّ، إنَّهُ بَيْتُ السَّيِّدِ كَييرو، أَعْرِفُهُ جَيِّداً. فَساطَ الْحِصانَ. بَدَأَ الْحِصانُ يُكَرْدِحُ عَلى الطَّريقِ الرَّئيسَةِ الْمَحْفوفَةِ بِالنَّخيلِ. وَكانَتْ تَتَراءى، في الْحُقولِ، أَكْواخٌ مِنَ الْقَشِّ، وَأَحْياناً يَتَراءى زِنْجِيٌّ جالِسٌ عِنْدَ عَتَبَةِ الْبابِ.

لَكِنْ أَيْنَ نَحْنُ؟، سَأَلَ پِصُواً الْحَوْذِيَّ، إلى أَيْنَ تَقودُني؟

نَحْنُ في جَنوبِ أَفْريقْيا، أَجابَ الْحَوْذِيُّ، وَإنّي أَقودُكَ إلى بَيْتِ السَّيِّدِ كَييرو.

أَحَسَّ پِصُواً بِالْأَمانِ، اتَّكَأَ عَلى مِسْنَدِ الْمَقْعَدِ. آهْ، إنَّها جَنوبُ أَفْريقْيا إذَنْ، مُرادُهُ بِالضَّبْطِ. وَضَعَ السّاقَ عَلى السّاقِ بِرِضاً فَرَأى

(١) Ribatejo.

كاَحِلَيْهِ عاَرِيَّيْنِ، فِي سَرَاوِيلِ بَحاَّرٍ. أَدْرَكَ أَنَّهُ طِفْلٌ وَابْتَهَجَ لِذَلِكَ كَثِيراً. فَقَدْ كاَنَ جَميِلًا أَنْ يَكوُنَ طِفْلًا يَجوُلُ عَبْرَ جَنوُبِ أَفْرِيقْياَ. أَخْرَجَ عُلْبَةَ سَجاَئِرٍ وَأَشْعَلَ واَحِدَةً مِنْهاَ بِانْتِشاَءٍ. قَدَّمَ لِلْحَوْذِيِّ واَحِدَةً ساَرَعَ بِقَبوُلِهاَ.

كاَنَ شَفَقُ الْمَغيِبِ يَلوُحُ عِنْدَماَ انْحَسَرَ ناَظِراَهُماَ قُباَلَةَ بَيْتٍ أَبْيَضَ عَلىَ رَبْوَةٍ تَكْسوُهاَ أَشْجاَرُ السَّرْوِ. كاَنَ بَيْتاً مِنْ بُيوُتاَتِ رِيباَتِيخوُ الَّتِي تُمَيِّزُهاَ، طَوِيلًا واَطِئاً، ذاَ سَقْفٍ ماَئِلٍ مُغَطىً بِقِرْمِيدٍ أَحْمَرَ. دَلَفَتِ الْعَرَبَةُ فِي الْمَسْلَكِ بَيْنَ أَشْجاَرِ السَّرْوِ، طَقْطَقَ الْحَصىَ تَحْتَ الْعَجَلاَتِ، نَبَحَ كَلْبٌ فِي الرِّيفِ.

كاَنَتْ توُجَدُ عِنْدَ عَتَبَةِ الْبَيْتِ عَجوُزٌ قَصِيرَةُ الْقاَمَةِ بِنَظاَّرَتَيْنِ وَسُتْرَةِ رَأْسٍ ناَصِعَةَ الْبَياَضِ. أَدْرَكَ بِصُواَ فَوْراً أَنَّهاَ شَقِيقَةُ جَدَّةِ أَلْبِرْطوُ كَييِّروُ فَقَبَّلَ وِجْنَتَيْهاَ وَهُوَ يَتَطاَوَلُ عَلىَ رُؤوُسِ أَصاَبِعِ قَدَمَيْهِ.

لاَ تُرْهِقْ كَثِيراً صَغِيرِي أَلْبِرْطوُ، قاَلَتِ الْعَجوُزُ قَصِيرَةُ الْقاَمَةِ، فَصِحَّتُهُ هَشَّةٌ أَيَّماَ هَشاَشَةٍ.

أَفْسَحَتِ الطَّرِيقَ فَوَلَجَ بِصُواَ الْبَيْتَ. كاَنَ عِباَرَةً عَنْ غُرْفَةٍ واَسِعَةٍ مُؤَثَّثَةٍ بِشَكْلٍ مُتَواَضِعٍ. كاَنَتْ ثَمَّةَ مِدْفَأَةٌ، مَكْتَبَةٌ صَغِيرَةٌ، خِواَنٌ مَمْلوُءٌ بِالْأَطْباَقِ، أَرِيكَةٌ وَمَقْعَدٌ وَثِيراَنِ. كاَنَ أَلْبِرْطوُ كَييِّروُ

جالِساً عَلىَ أَحَدِهِماَ مُسْنِداً رَأْسَهُ إلىَ الْخَلْفِ. إنَّهُ الْمُديرُ نِيكوُلَاسْ[1]، أُسْتاذُهُ في الْمَدْرَسَةِ الْعُلْياَ.

لَمْ أَعْلَمَ أَنَّكَ أَنْتَ كَيِيِّروُ، قاَلَ پِصُواً، وَهُوَ يَنْحَني إجْلاَلًا. أَوْمَأَ لَهُ أَلْبِرْطوُ كَيِيِّروُ بِتَعَبٍ باَدٍ عَلَيْهِ يَدْعوُهُ لِلْاقْتِراَبِ مِنْهُ. تَقَدَّمْ، عَزيزِي پِصُواً، لَقَدِ اسْتَدْعَيْتُكَ هُناَ لِأَنيِّ أَرَدْتُكَ أَنْ تَعْرِفَ الْحَقيقَةَ.

في تِلْكَ الْأَثْناَءِ، دَخَلَتْ شَقيقَةُ جَدَّتِهِ بِصينِيَّةٍ كاَنَ عَلَيْهاَ بَعْضُ الشاَّيِ وَقِطَعٌ صَغيرَةٌ مِنَ الْحَلْوىَ. تَناَوَلَ كُلٌّ مِنْ كَيِيِّروُ وَ پِصُواً فِنْجاَناً. تَذَكَّرَ پِصُواً اَنْ لَا يَرْفَعَ الْخِنْصِرَ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَلاماَتِ قِلَّةِ الْأَدَبِ. سَوىَّ ياَقَةَ بِذْلَتِهِ الْبَحْرِيَّةِ وَأَشْعَلَ سيجاَرَةً. أَنْتَ مُعَلِّمِي، قاَلَ پِصُواً.

تَنَهَّدَ كَيِيِّروُ ثُمَّ تَبَسَّمَ. إنَّهاَ حِكاَيَةٌ طَويلَةٌ، قاَلَ، وَلَا يُجْدِي فِي شَيْءٍ أَنْ أَقُصَّهاَ عَلَيْكَ بِتَفاَصيلِهاَ، أَنْتَ ذَكِيٌّ وَسَتَفْهَمُ حَتىَّ لَوْ أَسْقَطْتُ بَعْضَ الْأَحْداَثِ. اعْلَمْ فَقَطْ أَمْراً واَحِداً، أَنَّني أَنْتَ.

وَضِّحْ أَكْثَرَ، قاَلَ پِصُواً.

أَناَ الْجاَنِبُ الْأَعْمَقُ فيكَ، قاَلَ كَيِيِّروُ، الْجاَنِبُ الْمُعْتِمُ مِنْكَ. لَذاَ أَناَ مُعَلِّمُكَ.

---

(١) Nicholas.

رَنَّ، فِي الْقَرْيَةِ الْمُجاوِرَةِ، جَرَسٌ مُعْلِناً الساَّعَةَ.

وَأَنا ماذا عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ؟، سَأَلَ پِصُوا.

أَنْتَ، عَلَيْكَ أَنْ تَتَتَبَّعَ صَوْتي، قالَ كَيِيّرُو، سَتَسْمَعُني في الْيَقَظَةِ وَالْمَنامِ، سَأُزْعِجُكَ أَحْياناً، وَفي أَحْيانَ أُخْرى لَنْ تَوَدَّ أَنْ تَسْمَعَني. لَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَسْمَعَني، عَلَيْكَ أَنْ تَتَحَلىَّ بِشَجاعَةِ الْاسْتِماعِ لِهَذا الصَّوْتِ، إِذا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ شاعِراً عَظيماً.

سَأَفْعَلُ، قالَ پِصُواً، أَتَعَهَّدُ بِذَلِكَ.

نَهَضَ وَطَلَبَ الْإِذْنَ بِالْانْصِرافِ. كانَتِ الْعَرَبَةُ تَنْتَظِرُهُ عِنْدَ الْبابِ. ها هُوَ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ جَديدٍ وَقَدْ نَما شارِباهُ. إِلى أَيْنَ عَلَيَّ أَنْ أَقُودَكَ؟، سَأَلَ الْحَوْذِيُّ. قُدْني نَحْوَ نِهايَةِ الْحُلْمِ، قالَ پِصُواً، فَهَذا يَوْمُ الْمَجْدِ في حَياتي.

كانَ الْيَوْمُ مُوافِقاً لِلثامِنِ مِنْ مارِسْ/آذارْ، وَكانَ شُعاعٌ شَمْسِيٌّ باهِتٌ يَنْفُذُ مُغَرْبَلًا عَبْرَ نافِذَةِ پِصُواً.

١٨

حُلْمُ ڤلاديمِيرْ مايَاكوُڤسْكيِ، شاعِراً وَثائِراً



وُلِدَ في إِحْدىَ قُرىَ جْيورْجْيا في ١٨٩٣، دَرَسَ التَّشْكيلَ، وَالْعِمارَةَ وَالنَّحْتَ. انْتَسَبَ لِلْحِزْبِ الْبُلْشُفِيِّ السِّرِّيِّ فَتِياً وَعَرَفَ بَرْدَ الزَّنازِنِ. بَعْدَ أَنِ اسْتَهْوَتْهُ أَفْكارُ الْحَداثَةِ، صارَ رائِداً لِلْمُسْتَقْبَلِيَّةِ وَقامَ بِرِحْلَةٍ عَبْرَ روُسْيا بِالْقِطارِ، مُرْتَدِياً بِذْلَةً بُرْتُقالِيَّةً. انْخَرَطَ بِحَماسٍ في الثَّوْرَةِ الْبُلْشُفِيَّةِ وَتَقَلَّدَ مَسْؤوُلِياتٍ مُهِمَّةً في التَّنْظيماتِ الْفَنِّيَّةِ الثَّوْرِيَّةِ. كانَ مُنَظِّماً، دِعائِياً، رَسّامَ مُلْصَقاتٍ وَناظِمَ أَشْعارٍ غاضِبَةٍ وَمَلْحَمِيَّةٍ. في ١٩٢٥، نَظَمَ قَصيدَةً صَغيرَةً حَزينَةً لِلتَّغَنّي بِلينينْ. لَكِنَّ الْأُمورَ، في بَلَدِهِ، بَدَأَتْ تَأْخُذُ مَنْحىً مُتَأَزِّماً بِالنِّسْبَةِ لِلْفَنّانينَ الطَّليعِيِّينَ. بَعْدَ الْخَيْبَةِ وَنَوْباتِ الْفَزَعِ، أُصيبَ بِعُصابٍ لَمْ يَكُنْ يُفارِقُهُ. كانَ يَغْسِلُ يَدَيْهِ مِراراً، وَيَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ بِصابوُنَةٍ في جَيْبِهِ. انْتَحَرَ، حَسَبَ الرِّوايَةِ الرَّسْمِيَّةِ، بِطَلْقَةِ مُسَدَّسٍ في ١٩٣٠.

فِي الثالِثِ مِنْ نيسانْ/ أَبْريلْ، آخِرِ شَهْرٍ مِنْ حياتِهِ، رَأى فْلاديميرْ ماياكوفْسْكي، الشاعِرُ وَالثائِرُ، نَفْسَ الْحُلْمِ الَّذي تَعَوَّدَ، مُنْذُ سَنَةٍ، أَنْ يَراهُ كُلَّ لَيْلَةٍ.

رَأى أَنَّهُ يَتَواجَدُ في مِتْروُ موُسْكوُ، عَلى مَتْنِ قِطارٍ يَجْري بِسُرْعَةٍ قُصْوى. كانَ مَفْتوُناً بِالسُّرْعَةِ، لِأَنَّهُ كانَ يُحِبُّ الْمُسْتَقْبَلَ وَالْآلاتِ وَلَكِنَّهُ الْآنَ يَشْعُرُ بِحاجَةٍ مُرْعِبَةٍ لِلنُّزوُلِ، وَيُقَلِّبُ بِلَجاجَةٍ شَيْئاً كانَ يَحْفَظُهُ في جَيْبِهِ. وَلِيَكْظِمَ قَلَقَهُ، اسْتَحْسَنَ الْجُلوُسَ، فَاخْتارَ مَقْعَداً عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْ اِمْرَأَةٍ قَصيرَةِ الْقامَةِ مُتَّشِحَةٍ بِالسَّوادِ، وَفي يَدِها كيسُ مُؤَنٍ. عِنْدَما جَلَسَ ماياكوُفْسْكي بِجانِبِها، انْتَفَضَتِ الْعَجوُزُ قَصيرَةُ الْقامَةِ مُرْتاعَةً. هَلْ تُوْحي هَيْأَتي بِالْبَشاعَةِ إلى هَذِهِ الدَّرَجَةِ؟ قالَ ماياكوُفْسْكي في نَفْسِهِ، ثُمَّ تَبَسَّمَ لِلْعَجوُزِ قَصيرَةِ الْقامَةِ. فَقالَ: لا تَخافي، ما أَنا إلَّا غَيْمَةٌ وَلا أَطْلُبُ شَيْئاً آخَرَ عَدا النُّزوُلِ مِنْ هَذا الْقِطارِ.

تَوَقَّفَ الْقِطارُ أَخيراً في مَحَطَّةٍ ماً، فَنَزَلَ ماياكوُفْسْكي دوُنَ الْانْتِباهِ لِذَلِكَ. وَلَجَ أَوَّلَ دَوْرَةٍ لِلْمِياهِ وَجَدَها أَمامَهُ وَأَخْرَجَ الشَّيْءَ

الَّذي كانَ يَحفَظُهُ في جَيْبِهِ. كانَ قِطْعَةَ صابُونٍ أَصْفَرَ، مِثْلَ ذاكَ الَّذي تَسْتَعْمِلُهُ الْغسالاتُ. فَتَحَ الْحَنَفِيَّةَ وَأَخَذَ يَفْرِكُ يَدَيْهِ بِعِنايَةٍ، لَكِنَّ الْقَذارَةَ الَّتي كانَ يَشْتَمُّها في كَفَّيْهِ لَمْ تَكُنْ لِتَزولَ. إذاكَ دَسَّ الصابُونَ ثانِيَةً في جَيْبِهِ وَخَرَجَ نَحْوَ الْمَمَرِّ. كانَتِ الْمَحَطَّةُ خالِيَةً. في عُمْقِها، تَحْتَ مُلْصَقٍ كَبيرٍ، كانَ ثَمَّةَ ثَلاثَةُ رِجالٍ أَتَوا لِلُقْياهُ إذْ لَمَحوهُ. كانوا يَرْتَدونَ مَعاطِفَ سَوْداءَ مُشَمَّعَةً وَقُبَّعاتٍ مِنَ اللَّبْدِ.

الشُّرْطَةُ السِّياسِيَّةُ، قالَ الثَّلاثَةُ في نَغْمَةٍ واحِدَةٍ، تَفْتيشٌ وِقائِيٌّ.

رَفَعَ مايَاكوفْسكي يَدَيْهِ وَتَرَكَهُمْ يُفَتِّشونَهُ.

وَهذا، ماذا عَساهُ يَكونُ؟، سَأَلَ أَحَدُهُمْ بِنَبْرَةِ ازْدِراءٍ، وَهْوَ يُلَوِّحُ بِقِطْعَةِ الصابُونِ.

لَا أَدْري، قالَ مايَاكوفْسكي بِأَنَفَةٍ، أَنا لَا أَدْري شَيْئاً عَنْ هَذِهِ الْأَشْياءِ، ما أَنا إلّا غَيْمَةٌ.

هَذا صابُونٌ، هَسَّ بِمَكْرٍ ذاكَ الَّذي كانَ يَسْتَنْطِقُهُ، فَأَنْتَ بِالتَّأْكيدِ كَثيراً ما تَغْسِلُ يَدَيْكَ، ما زالَ الصابُونُ مُبَلَّلاً.

لَمْ يَنْبِسْ مايَاكوفْسكي بِكَلِمَةٍ، مَسَحَ جَبْهَتَهُ الْبَليلَةَ بِالْعَرَقِ.

تَعالَ مَعَنا، قالَ أَحَدُهُمْ، فَأَمْسَكَ بِهِ مِنَ الذِّراعِ، فيما كانَ الْآخَرانِ يَتْبَعانِهِما.

صَعَدوا الْأَدْراجَ إلى أَنْ بَلَغوا مَحَطَّةً فَسيحَةً في الْهَواءِ الطَّلْقِ.

أَسْفَلِهاَ كاَنَتْ ثَمَّةَ مَحْكَمَةٌ، يَتَكَوَّنُ طاَقَمُهاَ مِنْ قُضاَةٍ بِالْبِزَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَحُضورٍ مِنَ الْأَطْفالِ الْمُلْتَحِفينَ بِهَيْئَةِ يَتامَى صِغارٍ.

قادَهُ الثَّلاثَةُ نَحْوَ قَفَصِ الْاتِّهامِ وَسَلَّموا الصاَّبُونَةَ لِأَحَدِ الْقُضاَةِ. تَناوَلَ الْقاضِي مُكَبِّرَ الصَّوْتِ وَقاَلَ: ضَبَطَتْ أَجْهِزَتُناَ الْأَمْنِيَّةُ مُذْنِباً مُتَلَبِّساً، كاَنَ يَدُسُّ في جَيْبِهِ أَداةَ فِعْلَتِهِ الْمُريبَةِ.

صاَحَ حُضورُ الْيَتاَمى في لَحْنٍ جَماَعِيٍّ مُسْتَهْجِنٍ.

حُكِمَ عَلىَ الْمُذْنِبِ بِعَذاَبِ الْقاَطِرَةِ، قاَلَ الْقاضِي وَهْوَ يَقْرَعُ سَطْحَ الْمَكْتَبِ بِمِطْرَقَتِهِ الْخَشَبِيَّةِ.

تَقَدَّمَ حارِساَنِ، جَرَّداَ ماَياَكوُفْسْكي مِنْ ثِياَبِهِ وَأَلْبَساَهُ بِذْلَةً فَضْفاَضَةً صَفْراءَ. بَعْدَهاَ قاَداَهُ نَحْوَ قاَطِرَةٍ كاَنَتْ تَنْبَعِثُ مِنْهاَ قَبْلاً هَبْوَاتُ الدُّخاَنِ، وَكاَنَ يَقوُدُهاَ ساَئِقٌ نِصْفُ عاَرٍ، تَبْدوُ عَلَيْهِ مَلامِحُ الْقَسْوَةِ. عَلىَ الْقاَطِرَةِ، كاَنَ جَلاَّدٌ يَعْتَمِرُ بُرْنُساً يُمَيِّزُ الْجَلاَّدينَ يُمْسِكُ سَوْطاً بِيَدِهِ.

وَالْآنَ، سَنَرىَ ماَ أَنْتَ فاَعِلُهُ، قاَلَ الْجَلاَّدُ، فَشَقَّتِ الْقاَطِرَةُ طَريقَهاَ.

نَظَرَ ماَياَكوُفْسْكي خاَرِجاً وَأَدْرَكَ أَنَّهُماَ كاَناَ يَعْبُراَنِ روُسْياَ الْكُبْرىَ. قُرىً شاَسِعَةٌ وَسُهوُلٌ، حَيْثُ كاَنَ يَفْتَرِشُ الثَّرىَ رِجاَلٌ وَنِساَءٌ مَعاَصِمُهُمْ في الْقُيوُدِ.

أُوْلاءِ الْقَوْمُ يَنْتَظِرُونَ قَصائِدَكَ، قالَ الْجَلَّادُ، أَنْشِدْ، أَيُّها الشاعِرُ. فَساطَهُ.

فَأَخَذَ ماياكوُفسْكي يُلْقي أَرْدَأَ قَصائِدِهِ. كانَتْ قَصائِدَ مُثْقَلَةً بِالْحَماسَةِ وَالتَّنْميقِ. وَعِنْدَما كانَ يُنْشِدُ، كانَ النأسُ يَرْفَعونَ مَعاصِمَهُمْ، يَلْعَنونَهُ وَيَلْعَنونَ أُمَّهُ.

آنَذاكَ اسْتَفاقَ ڤلاديمِيرْ ماياكوُفسْكي وَراحَ لِيَغْسِلَ يَدَيْهِ في دَوْرَةِ الْمِياهِ.

١٩

حُلْمُ فِدِرِيكوُ گَارْثْيا لوُرْكا، شاعِراً وَمُناهِضاً لِلْفاشِيَّةِ



وُلِدَ في وِلَايَةِ غَرْناطَةَ في ١٨٩٨، دَرَسَ في مَدْرِيدْ وَكانَ صَدِيقاً لِأَهَمِّ فَنانِي جيلِهِ. كانَ شاعِراً، موسِيقِياً، تَشْكِيلِياً وَمَسْرَحِياً. في ١٩٣٢، كَلَّفَتْهُ الْحُكومَةُ الْجَمْهورِيَّةُ بِإِنْشاءِ فِرْقَةٍ مَسْرَحِيَّةٍ يَكونُ مَشْروعُها نَقْلَ الْكْلاسِيكِيَّاتِ عَلى الْخَشَبَةِ مِنْ أَجْلِ عامَّةِ الشَّعْبِ. مِنْ هُنا نَشَأَتْ فِرْقَةُ لَابارَاكا La Barraca، عِبارَةٌ عَنْ مَسْرَحٍ جَوالٍ كانَ يَجولُ بِهِ لورْكا كامِلَ إِسْبانْيا. في ١٩٣٦، أَسَّسَ جَمْعِيَّةَ الْمُثَقَّفِينَ الْمُناهِضِينَ لِلْفاشِيَّةِ. في النَّشِيدِ الْعَمِيقِ Cante jondo وَفي غالِبِ شِعْرِهِ، تَغَنَّى بِتَقالِيدِ غَجَرِ الْأَنْدَلُسِ، وَأَنْشادِهِمْ وَعِشْقِهِمْ. اغْتِيلَ في ١٩٣٦ في ضاحِيَةِ غَرْناطَةَ بِيَدِ عِصاباتِ فْرانْكو.

فِي إِحْدىَ لَيَالِي أُغُسْطُسْ/ غُشْتْ ١٩٣٦، بِبَيْتِهِ فِي غَرْنَاطَةَ، رَأىَ فِدِرِيكوُ گَارْثْياَ لوُرْكاَ، الشاَّعِرُ وَالْمُناَهِضُ لِلْفاَشِيَّةِ، مَناماً. رَأىَ أَنَّهُ يوُجَدُ فَوْقَ خَشَبَةِ مَسْرَحِهِ الْجوالِ الصَّغيرِ وَأَنَّهُ، بِمُصاَحَبَةِ الْپِيانوُ، يُغَنِّي أغاَنٍ غَجَرِيَّةً. كاَنَ يَرْتَدي لِباَساً رَسْمِيّاً أَسْوَدَ، لَكِنَّهُ كاَنَ يَعْتَمِرُ قُبَّعَةً أَنْدَلُسِيَّةً واَسِعَةَ الْحَواَفِّ. أَماَّ الْجُمْهوُرُ فَكاَنَ مُكَوَّناً مِنْ عَجاَئِزَ مُتَّشِحاَتٍ بِالسَّواَدِ، بِطَرْحَةٍ عَلىَ الْمَنْكِبَيْنِ؛ وَكُنَّ يُصْغِينَ إِلَيْهِ بِافْتِتاَنٍ. الْتَمَسَ مِنْهُ صَوْتٌ مِنَ الْقاَعَةِ أُغْنِيَّةً، فَأَخَذَ فِدِرِيكوُ گَارْثْياَ لوُرْكاَ فِي تَأْدِيَّتِهاَ. كاَنَتْ أُغْنِيَّةً عَنِ الْمُباَرَزاَتِ وَبَياَّراَتِ الْبُرْتُقاَلِ، عَنْ لَواَعِجِ الْحُبِّ وَالْمَوْتِ. لَماَّ فَرَغَ مِنَ الْغِناَءِ، وَقَفَ فِدِرِيكوُ گَارْثْياَ لوُرْكاَ وَحَياَّ الْجُمْهوُرَ. نَزَلَتِ السِّتاَرَةُ، إِذاَّكَ فَقَطْ تَنَبَّهَ لِانْعِداَمِ الْكَواَلِيسِ خَلْفَ الْپِياَنوُ، وَأَنَّ الْمَسْرَحَ كاَنَ مُشْرَعاً عَلىَ قَرْيَةٍ مَهْجوُرَةٍ. نَظَرَ فِدِرِيكوُ گَارْثْياَ لوُرْكاَ بَيْنَ ثَناَياَ السِّتاَرَةِ فَرأىَ أَنَّ الْمَسْرَحَ قَدْ خَلاَ بَغْتَةً، كاَنَتِ الْقاَرِعَةُ فاَرِغَةً تَماَماً، أَماَّ الأَضْواَءُ فَقَدْ خَفَتَتْ. فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ سَمِعَ نُواَحاً، وَلَمَحَ مِنْ خَلْفِهِ كَلْباً أَسْوَدَ يَبْدوُ أَنَّهُ يَنْتَظِرُهُ. أَحَسَّ فِدِرِيكوُ گَارْثْياَ لوُرْكاَ أَنَّ عَلَيْهِ اتِّباَعَهُ

فَخَطاَ خُطْوَةً. كَأَنَّهُ كانَ يَنْتَظِرُ إشارَةً مُتَّفقاً عَلَيْهاَ، بَدَأَ الْكَلْبُ يُكَرْدِحُ بِبُطْءٍ شاَقاًّ الطَّرِيقَ. إلىَ أَيْنَ تَقوُدُني أَيُّهاَ الْكَلْبُ الأَسْوَدُ الصَّغِيرُ؟ سَأَلَ فِدرِيكوُ كَارْثِياَ لوُرْكاَ. ناَحَ الْكَلْبُ بِأَلَمٍ فَانْتاَبَتْ فِدرِيكوُ كَارْثِياَ لوُرْكاَ قُشْعَرِيرَةٌ. اسْتَدارَ، نَظَرَ إلىَ الْخَلْفِ، فَرَأىَ أَنَّ الْجُنُباَتِ الْقُماَشِيَّةَ وَالْخَشَبِيَّةَ لِمَسْرَحِهِ قَدِ اخْتَفَتْ. لَمْ تَبْقَ إلّاَ رَدْهَةُ الْمَسْرَحِ الْخاَلِيَةُ تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ آناَءَ كاَنَ الْپِيانوُ، كَأَنَّماَ تُداَعِبُهُ أَصاَبِعُ خَفِيَّةٌ، يَعْزِفُ لِوَحْدِهِ لَحْناً قَدِيماً. كاَنَتِ الْقَرْيَةُ مَعْزوُلَةً بِسوُرٍ: سوُرٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ عَدِيمُ الْجَدْوىَ تَسْتَطِيعُ أَنْ ترىَ مِنْ خَلْفِهِ قَرْيَةً أُخْرىَ. تَوَقَّفَ الْكَلْبُ وَناَحَ مِنْ جَدِيدٍ، تَوَقَّفَ فِدرِيكوُ كَارْثِياَ لوُرْكاَ بِدَوْرِهِ. آنذاَكَ خَرَجَ مِنْ خَلْفِ السوُّرِ جُنْدٌ طَوَّقوُهُ وَهُمْ يَضْحَكوُنَ. كاَنواُ يَرْتَدوُنَ بِزاَّتٍ داَكِنَةً وَيَعْتَمِروُنَ قُبَّعاَتٍ ثُلاَثِيَّةَ الْقُروُنِ. كاَنواُ يُمْسِكوُنَ بُنْدُقِيَّةً بِيَدٍ وَبالأُخْرىَ زُجاَجَةَ نَبِيذٍ. كاَنَ قاَئِدُهُمْ قَزَماً بَشِعاً، ذاَ رَأْسٍ شَدِيدَةِ الاحْدِوْداَبِ. أَنْتَ خاَئِنٌ، قاَلَ الْقَزَمُ، وَنَحْنُ جَلَّادوُكَ. بَصَقَ فِدرِيكوُ كَارْثِياَ لوُرْكاَ عَلىَ وَجْهِهِ عِنْدَماَ كاَنَ الْجُنْدُ يَشُلوُّنَ حَرَكَتَهُ. قَهْقَهَ الْقَزَمُ قَهْقَهَةً داَعِرَةً وَصاَحَ في الْجُنْدِ أَنْ جَرِّدوُهُ مِنْ سِرْواَلِهِ. أَنْتَ امْرَأَةٌ، قاَلَ الْقَزَمُ، وَلَيْسَ لاَئِقاً بِالنِّساَءِ أَنْ يَرْتَدِينَ السِّرْواَلَ، عَلَيْهِنَّ أَنْ يَبْقَيْنَ حَبِيساَتِ غُرَفِ الْبُيوُتاَتِ وَأَنْ يَسْتُرْنَ رُؤوُسَهُنَّ بِالطَّرْحَةِ. بِإشاَرَةٍ مِنَ الْقَزَمِ، قَيَّدَهُ الْجُنْدُ، جَرَّدوُهُ مِنْ سِرْواَلِهِ وَغَطواُ رَأْسَهُ بِشاَلٍ. أَيَّتُهاَ

الْمَرْأَةُ الصالِحَةُ النَّتِنَةُ الَّتِي تَتَشَبَّهُ فِي زِيِّهاَ بِالرِّجاَلِ، قاَلَ الْقَزَمُ، حاَنَ أَواَنُ تَضَرُّعِكِ لِلسَّيِّدَةِ الْعَذْراءِ. بَصَقَ فِدِرِيكوُ گاَرْثِياَ لوُرْكاَ عَلىَ وَجْهِهِ فَتَنَشَّفَ الْقَزَمُ وَهْوَ يَضْحَكُ. بَعْدَهاَ أَخْرَجَ مُسَدَّساً أَوْلَجَ فُوَّهَتَهُ فِي فَمِ فِدِرِيكوُ گاَرْثِياَ لوُرْكاَ. كاَنَ يُسْمَعُ لَحْنُ الْپِياَنوُ عَبْرَ أَرْجاَءِ الْقَرْيَةِ. كاَنَ الْكَلْبُ يَنوُحُ. سَمِعَ فِدِرِيكوُ گاَرْثِياَ لوُرْكاَ ضَرْباً فاَنْتَفَضَ فِي فِراَشِهِ. كاَنَ يُطْرَقُ باَبُ بَيْتِهِ فِي غَرْناَطَةَ بِأَعْقاَبِ الْبَناَدِقِ.

٢٠

حُلْمُ الدُّكْتوُرِ سيِگموُنْدْ فرِوُيْدْ، مُفَسِّراً لِأَحْلاَمِ الآَخَرِينَ



فْرَاَيْبوُرْگْ Freiberg، ١٨٥٦ ـ لُنْدُنْ، ١٩٣٩. كاَنَ مُخْتَصاً فيِ طِبِّ الْأَعْصاَبِ. دَرَسَ فيِ الْبِداَيَةِ الْهَرَعَ (الْهيِسْتيِرْياَ) وَالتَّنْويِمَ عَلىَ طَرِيقَةِ الطَّبِيبِ الْفَرَنْسِيِّ شاَرْكوُ Charcot، ثُمَّ تَخَصَّصَ فيِ تَفْسيِرِ أَحْلاَمِ النّاَسِ (**تَفْسِيرُ الْأَحْلاَمِ**، ١٩٠٠)، مُتَوَخِّياً بُلوُغَ ماَ يُلِمُّ بِناَ مِنْ خِلاَلِهاَ. داَفِعَ فيِ نَظَرِيَّتِهِ عَنْ كَوْنِ الْإِنْساَنِ يَمْتَلِكُ فيِ دَواَخِلِهِ جَلْطَةً مُظْلِمَةً أَسْماَهُ اللاّ وَعْيَ. يُمْكِنُ أَنْ يُقْرَأَ كِتاَبُهُ **خَمْسَةُ دُرُوس فِي التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ** كَرِواَياَتٍ حاَذِقَةٍ. **الْهُوَ، الْأَناَ وَالْأَناَ الْأَعْلىَ** أَقاَنيِمُهُ الثَّلاَثَةُ. وَلَعَلَّهاَ تَكوُنُ كَذَلِكَ حَتىَّ بِالنِّسْبَةِ لَناَ.

فِي لَيْلَةِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شُتَمْبِرْ/ أَيْلُول ١٩٣٩، يَوْماً قَبْلَ وَفَاتِهِ، رَأَى الدُّكْتُورُ سِيگْمُونْدْ فْرُويْدْ، مُفَسِّرُ أَحْلَامِ الْآخَرِينَ، مَنَاماً.

رَأَى أَنَّهُ اسْتَحَالَ إِلَى شَخْصِيَّةِ دُورَا وَأَنَّهُ كَانَ يَعْبُرُ ڤِيينَا تَحْتَ الْقَصْفِ. كَانَتِ الْمَدِينَةُ دَمَاراً، كَانَ الْغُبَارُ وَالدُّخَانُ يَتَصَاعَدَانِ مِنَ الْعِمَارَاتِ الْخَرِبَةِ.

كَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ تُدَمَّرَ هَذِهِ الْمَدِينَةُ؟ كَذَا كَانَ يُسَائِلُ الدُّكْتُورُ فْرُويْدْ نَفْسَهُ، وَهُوَ يُحَاوِلُ تَثْبِيتَ ثَدْيَيْهِ الْمُسْتَعَارَيْنِ. لَكِنَّهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، صَادَفَ، فِي شَارِعِ الْبَلَدِيَّةِ، فْرَاوْ [السَّيِّدَةَ، بِالْأَلْمَانِيَّةِ] مَارْتَا تَتَقَدَّمُ نَحْوَ مَقَرِّ الصَّحَافَةِ الْجَدِيدَةِ الْحُرَّةِ(١) الْمُتَوَاجِدَةِ قُبَالَتَهَا.

آهْ، عَزِيزَتِي دُورَا، صَاحَتْ فْرَاوْ مَارْتَا، قَرَأْتُ لِلتَّوِّ أَنَّ الدُّكْتُورَ فْرُويْدْ عَادَ إِلَى ڤِيينَا انْطِلَاقاً مِنْ پَارِيسْ وَأَنَّهُ يَقْطُنُ هُنَا بِالضَّبْطِ، فِي الرَّقْمِ السَّابِعِ مِنْ شَارِعِ الْبَلَدِيَّةِ، لَرُبَّمَا سَيَكُونُ أَحْسَنَ حَالًا لَكِ أَنْ يَفْحَصَكِ. وَهِيَ تَتَفَوَّهُ بِذَلِكَ، أَزَاحَتْ بِرِجْلِهَا جُثَّةَ جُنْدِيٍّ.

---

(١) Neue Frei Presse.

أَحسَّ الدُّكْتورُ فرويْدْ بِمَشاعِرِ الْخزْيِ، أَرْخى الْغُلالَةَ على وَجْهِهِ. قالَ بِحَياءٍ: لا أَدْري لِمَ.

لِأَنَّكِ تُعانينَ مَنْ مَشاكِلَ كَثيرَةٍ، عَزيزَتي دوُراَ، قالَتْ فْراَوْ مارْتاَ، تَحْتاَجينَ لِلْإِسْرارِ بِماَ فيكِ، وَصَدِّقيني أَنَّ لا أَحَدَ أَفْضَلُ لَكِ مِنَ الدُّكْتورِ فْروُيْدْ فيماَ يَخُصُّ الْمُسارَّةَ، فَهُوَ يَتَفَهَّمُ كُلَّ أَوْضاَعِ النِّساءِ، إلىَ حَدٍّ يَجْعَلُهُ أَحْياناً واحِدَةً مِنْهُمْ. الْمَرْأَةُ، كَثيراً ماَ يَتَماهى مَعَ دَوْرِها.

بِكُلِّ أَدَبٍ، وَلَكِنْ مُتَسَرِّعاً، طَلَبَ الدُّكْتورُ فْروُيْدْ الْإِذْنَ بِالْانْصِرافِ، وَواصَلَ طَريقَهُ. عَلى بُعْدِ خَطَواتٍ، صادَفَ الْوَلَدَ الْقَصاَّبَ الَّذي نَظَرَ إلَيْهِ بِتَمَلٍّ وَحَياَّهُ مُتَثاقِلًا. تَوَقَّفَ الدُّكْتورُ فْروُيْدْ، لِأَنَّهُ وَدَّ لَوْ يَتَلاكَمُ مَعَهُ، لَكِنَّ الْوَلَدَ الْقَصاَّبَ نَظَرَ نَحْوَ ساَقَيْهِ وَصاَحَ: دوُراَ، كاَنَ عَلَيْكِ أَنْ تَرْغَبي في رَجُلٍ حَقيقِيٍّ، بَدَلَ أَنْ تَعْشَقي اسْتِيْهاَماَتِكِ.

تَوَقَّفَ الدُّكْتورُ فْروُيْدْ حانِقاً. وَكَيْفَ لَكَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ؟ صاَحَ في وَجْهِهِ.

كُلُّ فْيِناَ تَعْرِفُ ذَلِكَ، قاَلَ الْوَلَدُ الْقَصاَّبُ، اسْتِيْهاَماَتُكِ الْجِنْسِيَّةُ كَثيرَةٌ، الدُّكْتورُ فْروُيْدْ هُوَ مَنِ اكْتَشَفَ ذَلِكَ.

رَفَعَ الدُّكْتورُ فْروُيْدْ قَبْضَتَيْهِ. بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبى. هُوَ بِعَيْنِهِ،

الدُّكْتورُ فْروُيْدْ، يُعاَني مَنْ اسْتِيْهاَماَتٍ جِنْسِيَّةٍ. فَالْآخروُنَ هُمْ مَنْ يُعاَني مِنْ هاَتِهِ الْاسْتِيْهاَماَتِ، أُوْلَئِكَ اللَّذينَ يَأْتوُنَ لِمُساَرَّتِهِ. أَماَّ هُوَ، فَكاَنَ رَجُلًا نَزيهاً لِلْغاَيَةِ، وَبِالنِّسْبَةِ لَهَذاَ الصِّنْفِ مِنَ الْاسْتِيْهاَماَتِ، فَكاَنَ عِباَرَةً عَنْ مَشاَكِلَ يُعاَني مِنْهاَ الْأَطْفاَلُ أَوِ الْأَشْخاَصُ الْمُضْطَرِبوُنَ.

لَا تَتَظاَهَري بِالْحُمْقِ، صاَحَ الْوَلَدُ الْقَصاَّبُ ضاَحِكاً، ثُمَّ نَقَرَ رَأْسَهاَ بِإِصْبِعِهِ الْوُسْطى.

انْتَعَشَ الدُّكْتورُ فْروُيْدِ مِنْ جَديدٍ. بَعْدَ كُلِّ هَذاَ، جَميلٌ أَنْ نُعاَمَلَ بِحَميمِيَّةٍ مِنْ طَرَفِ وَلَدٍ قَصاَّبٍ تَبْدوُ عَلَيْهِ مَعاَلِمُ الرُّجوُلَةِ. وفَضْلًا عَنْ كُلِّ هَذاَ، فَهُوَ دوُراَ الْآنَ، دوُراَ ذاَتَ الْمَشاَكِلِ الْقَذِرَةِ.

تَقَدَّمَ في شاَرِعِ الْبَلَدِيَّةِ إِلىَ أَنْ وَصَلَ قُداَّمَ بَيْتِهِ. بَيْتُهِ الْجَميلُ، الَّذي لَمْ يَعُدْ لَهُ وُجوُدٌ، كاَنَتْ قَدْ دَمَّرَتْهُ قَذيفَةٌ. لَكِنَّ فِي الْحَديقَةِ الصَّغيرَةِ، الَّذي بَقِيَ كَماَ هُوَ دوُنَ أَضْراَرٍ، كاَنَتْ ثَمَّةَ أَريكَةُ الْجَلَساَتِ الْعِلاَجِيَّةِ. وَعَلىَ الْأَريكَةِ، كاَنَ ثَمَّةَ رَجُلٌ فَظٌّ بِقَبْقاَبَيْنِ وَقَميصٍ خاَرِجَ السِّرْواَلِ مُضْطَجِعاً وَمُسْتَغْرِقاً في الشَّخيرِ.

دَناَ مِنْهُ الدُّكْتورُ فْروُيْدْ وَأَيْقَظَهُ. ساَءَلَهُ: ماَذاَ تَفْعَلُ هُناَ؟

رَمَقَهُ الرَّجُلُ الْفَظُّ بِعَيْنَيْنِ جاَحِظَتَيْنِ وَقاَلَ: أَبْحَثُ عَنِ الدُّكْتوُرِ فْروُيْدْ.

صاحَ الدُّكْتورُ فرويْدْ: أنا هُوَ الدُّكْتورُ فرويْدْ.

لا تُثيري سُخْرِيَّتي، سَيِّدَتي، قالَ الرَّجلُ الْفَظُّ.

إذَنْ، قالَ الدُّكْتورُ فرويْدْ، سَأبوحُ لكَ بِشَيْءٍ، قَرَّرْتُ الْيَوْمَ أَنْ أَبْدوَ بِمَظْهَرِ إحْدى مَريضاتي، ولِذا تَزَيَّيْتُ هكَذا، أنا دورا.

دورا، قالَ الرَّجلُ الْفَظُّ، لَكِنّي أُحِبُّكِ. عانَقَها وَهُوَ يَتَفَوَّهُ بِتِلْكَ الْعِبارَةِ. أَحَسَّ الدُّكْتورُ فرويْدْ بِهَلَعٍ بالِغٍ وَهَوى عَلى الْأَريكَةِ. اسْتَفاقَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ. كانَتْ تِلْكَ آخِرَ لَيْلَةٍ لَهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ بِذَلِكَ.

الفهرس

هذا الكتاب

تَدوُرُ مُجْمَلُ أَعْمالِهِ في عَوالِمَ حُلُمِيَّةٍ وَغَرِيبَةٍ، كَثِيراً ما تَحْضُرُ فيها ثِيمَةُ الْقَرِينِ، مَعَ عَلاقَةٍ خاصَّةٍ بِالزَّمانِ في شَكْلِ حَكايا أُسْطُورِيَّةٍ تَنْزاحُ عَنِ الْبِناءِ التَّقْلِيدِيِّ وَتَسْتَنِدُ لِزِخْمٍ تَصْوِيرِيٍّ هائِلٍ وَطابَعٍ شَذَرِيٍّ لا يَخْضَعُ لِخَطِّيَّةِ الْحِبْكَةِ، بِحَيْثُ لَمْ يَعُدْ مُمْكِناً تَصْنِيفُ هَذِهِ النُّصُوصِ ضِمْنَ الْجِنْسِ التَّقْلِيدِيِّ لِلرِّوايَةِ.

